خالد محمد خالد

لله .. والحرية

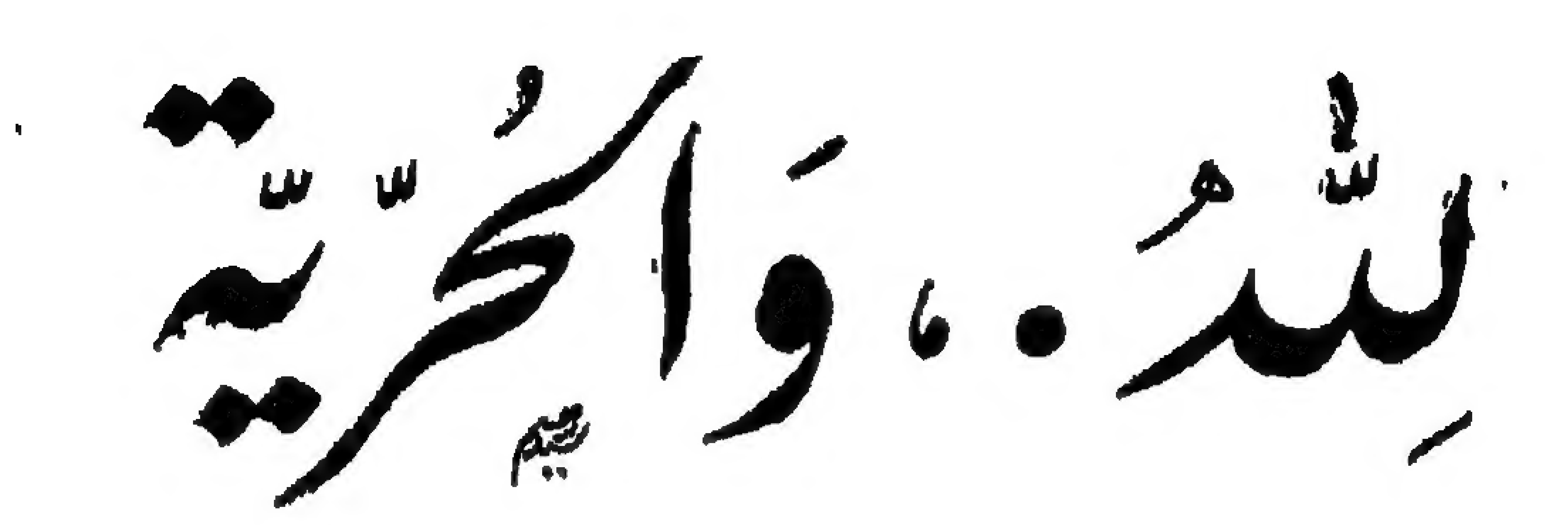
مقالات في السياسة والاجتماع

المجموعة الأولى

أبريل « ١٩٥٧ »

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع ابراهيم باشا بعابدين

خالد محمد خالد



مقالات في السياسة والاجتماع

المجموعة الأولى

ابريل « ١٩٥٧ »

الناشر : مكتبة وهبة
شارع ابراهيم باشا بعابدين

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٢٣

فى هذا الكتاب

صفحة

مقـــدمة

الحديث المبثوث على هذه الصفحات ، ليس جديدا . ، فهو مجموعة من المقالات ، سبق نشرها فى صحف عديدة ، وفى مناسبات شتى .

والجديد ، إذن ، هو جمعها فى كتاب ، وتيسير اقتنائها لمن يريد .

ولقد التقيت بالقراء ، فى أول إنتاج منظم ، عام « ١٩٥٠ » فى كتاب « من هنا . . نبدأ » .

ثم التقينا للمرة الثانية فى ربيع عام « ١٩٥١ » مع كتاب « مواطنون . . لا رعايا » .

ثم تتابع اللقاء . .

وكان الكتاب يستأثر بى عن المقال ، بيد أن ذلك لم يصرفنى عن كتابة المقال كلما هتفت بى مناسبته . سيما فى عام « ١٩٥١ » حين أسرعت حركة التاريخ فى زحفها ، وبدا أنها لا تقنع من الإنتاج الفكرى بالمدفعية الثقيلة المتمثلة فى الكتاب . . بل هى تريد مع هذا فيضاً هادراً من الطلقات السريعة ، المتمثلة فى المقال . .

وسيما أيضاً ، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، حيث نشرت لى بعض الصحف وخاصة الجمهورية مجموعة من المقالات .

ولقد كان لى قبل عام « ١٩٥٠ » محاولات لنشر بعض الكلمات العابرة . .

ولقد نشر بالفعل ، بضع كلمات . لم أعثر منها للأسف إلا على الكلمة

التى نبدأ بها هذه السلسلة ، وهى « اذكروا الله . . وانسوا الدولار » نشرتها جريدة الأهرام عام « ١٩٤٨ » .

وهذا الكتاب لا يضم مقالاتى جميعها .

بل هو يحتوى فحسب على المجموعة الأولى منها .

ولقد اعتمدنا فى اختيـــار المقـالات على التسلسل التاريخى لمواقيت ظهورها .

ونرجو ـ إن شاء الله ـ أن ننشر المجموعة الثانية فى وقت قريب .

تحية للقراء جميعاً . . وإلى لقاء .

« نشرت فى جريدة الأهرام »
« بتاريخ ـ ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ـ »

اذكروا الله . وانسوا الدولار..!!

حينما احتدمت المعركة الانتخابية الأخيرة فى إيطاليا ، وقف قس من رجال الكنيسة الإيطالية ، خطيباً فى مائة ألف أو يزيدون ؛ فقال:

ـ « أيها الناس . اذكروا الله ، وانسوا ستالين » ؛ وما أشد حاجة زعماء العرب اليوم إلى من يصرخ فيهم قائلا :

ـ « أيها السادة . ، اذكروا الله ، وانسوا الدولار » .

لقد أقامت أمريكا من دولارها إلها معبودا مطاعا . . ومن عجب أن تهوى إلى عبادة ذلك الصنم أفئدة الذين حطمت أديانهم الأصنام .!!

ما أشد حاجة زعماء العرب إلى من يذكرهم بالله ، وبأنفسهم . وينسيهم ذلك المحور الذى يصفعهم فى كل يوم مرة أو مرتين . .

لماذا نكثر اليوم من الدعوة إلى عقد محالفة مع بريطانيا . . وماهذا الإجماع الكاذب على قرب وقوع حرب ثالثة . . ولماذا يجب أن نقف فى هذه الحرب المزعومة إلى جانب أمريكا ، وبريطانيا . كما ينادى بذلك زعماؤنا الأبرار الأطهار ...؟؟!!

أسئلة قلقة . ، وعند جهينة جوابها اليقين .

وجهينة ـ إن كنت لا تعرفه ـ دعاة المعاهدة الجديدة ، ودعاة الحرب المزعومة . . !

ولكننا نستطيع أن نرد هذه المؤامرة إلى عاملين هامين .
هما : الدولار الأمريكى .

والدهاء البريطانى .

فهما كقدمى مارد . . والسياسة العربية بينهما كالكرة ، يصيب بها اللاعب الهدف . ثم ليس لها فى كأس المباراة نصيب ..!!

فهل إلى زجر هذه السياسة الطائشة من سبيل .. ؟؟

ألا صائح يصيح بساستنا المخدوعين بالمحور الجديد : أن اذكروا الله ، وانسوا الدولار .؟؟

ــ نشرت فى روزاليوسف ١٢ يونية سنة ١٩٥١ ــ
« وكانت حكومة مصر قد طلبت من بريطانيا أن تبدى رأيها فى الجلاء ، وتعديل المعاهدة ، فتلقت من الحكومة البريطانية ردا سفيهاً » .

بريطانيا تستحق منا الشكر !

كان ذلك فى عهد الملكة فيكتوريا . . وأقام « ملجاريو » حاكم « بوليفيا » حفلة ساهرة دعا إليها السفراء والقناصل . . وعندما شرفت «عشيقته» الحفل طلب إلى السفراء أن ينحنوا لها ويحيوها . . ! ففعلوا . . إلا وزير بريطانيا . ترفع وأبى . .

وغداة هذه الأمسية كان الوزير البريطانى الهمام يركب بأمر ملجاريو حمارا نحماً . . بعد أن جرد من ملابسه وجعل وجهه فى وضع مضاد . . وأخرج من العاصمة بين الطبل والزمر والصفير مشيعاً إلى بلاده بهذه الحفاوة الفائقة . !

وتميزت فيكتوريا من الغيظ .. وأمرت أن يبحر الأسطول إلى « بوليفيا » فوراً ليؤدبها ، ويخلع حاكمها .. ولما قيل لها : ليس لبوليفيا سواحل أمرت رئيس وزرائها أن ينتزع اسم هذه الولاية «الوقحة» من خرائط الامبراطورية وكتبها . . وظل أمرها هذا نافذا سنين عديدة .

تبرق ذكرى هذه الواقعة فى خاطرى كلما تأزمت بيننا وبين انجلترا الأمور وكلما سدرت حليفتنا «الفظيعة» فى غيها وبغيها . . وأترحم على

ملجاريو رغم عدم وجاهة الأسباب التى من أجلها أهان كبرياء الأمبراطورية المتبذخة .

ثم أعود ، فأذكر أنه كان لبريطانيا عندنا سفير . ساق الفيالق المسلحة إلى قصر الملك .. ونحى كبير أمنائه بقبضته الزاجرة وهو يقول أنا أعرف طريقى . . ودفع للملك ورقة زرية ليكتب عليها تنازلا عن العرش .. ولم يكن فى مصر « ملجاريو » يزفه ، كما زُف أخ له من قبل لسبب غير وجيه . .

وتمضى الخاطرات تترى..فأذكر صدقى باشا وقدتوكأ على شيخوخته المتهدمة وأبحر إلى لندن ليفاوض اتلى وبيفن ، ويمكث بينهم ما شاء الله أن يمكث ثم يقفل راجعاً . وإذ هو يهبط سلم الطائرة يصرح أنه قد وصل إلى اتفاق وبعد اثنتى عشرة ساعة كان آتلى ينبح بأن صدقى كذاب.

ثم أذكر الكارثة الممتعة . . التى تمثلت فى الرد البريطانى الأخير . وتطوينى بين غياهبها سبعون عاماً قضيناها تحت أظلاف الاستعمار ثم أصرخ صرخة مكتومة ! : أليس فى مصر ملجاريو رشيد . ؟

لماذا تتخذنا بريطانيا سخرية وهزوا ؟ لماذا تصطنع منا « مستعمرة جرذان » تجرى عليها تجاربها فى الخبث والترويض والاستغلال . . ؟

لعلنا لا نجد جوابا شافياً فى غير هذه القصة العربية القصيرة : ادعى رجل النبوة على عهد المأمون ولما استجوبه، التمس منه الرجل أن يصحبه بضع خطوات ليرى مشهداً رائع الدلالة . ومن شرفة مرتفعة وقف مدعى النبوة وبجانبه المأمون . . وأومأ الرجل إلى أحد أتباعه فرفع

الستارة . . وإذا قطيع صالح يربو على المائتين يخرون راكعين . . !
والتفت الرجل إلى المأمون وقال له :

ـ رجل يجد هؤلاء الرعايا المطيعين ، ثم يستكثرون عليه النبوة ..؟
أنى أستحق الشكر لأنى تواضعت . ولم أنصب نفسى إلها ..!

نعم .. وأن بريطانيا لتستحق منا شكراً سابغاً لأنها تركتنا حتى اليوم
نعيش فى مصر ونحمل جنسية مصرية ! .

ـ نشرت فى «روزاليوسف» ١٩ يونية سنة ١٩٥١ ـ
« لمناسبة حصاد القمح ، حيث كان الفلاحون يشقون
تحت وطأة الاقطاع والاستغلال » .

مأتم الحصاد . . !

فى كل بلاد الله التى تغل أرضها خيرا ورزقا مواسم حصاد تضفى فيها النعماء على الناس رواءها وبهجتها ، عدا مصر . . فلها فى كل حصاد مأتم . . لا موسم . ! وسيحسب المترفون أننا نبالغ فى تصوير هذه الفاجعة ، وأنهم لمعذورون ؛ فأكوام البنكنوت المتشامخة أمامهم تحجب عن أبصارهم مواكب الأسى والزفرات .. مواكب الذين تفيض أعينهم من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ..!

لكنها الحقيقة تجلجل اليوم فى أربعة آلاف قرية . . فى أربعة آلاف باستيل . . فى أربعة آلاف « سلخانة بشرية » تشوى فيها أبشار الفلاحين بسياط النهب والاستغلال . . ولقد كنت أتصور المآسى الواقعة فى بعض التفاتيش التى نشأت فى جحيمها . . وأقول : ـ ليس فى الإمكان ألعن مما كان ..! حتى زرت منذ شهرين قرية ليس بها تفاتيش لكنها منطقة نفوذ لعشرة من المالكين ، فرأيت افتنانا فى الظلم عجيباً : جد عجيب . ! فهناك يستأجر الفلاح قطعة أرض . فإذا أهلّ يوم الجنى أو الحصاد ، حمل المحصول على كاهله وأودعه مخزن السيد المالك . . ! وفى غيبته يقوم المالك بجرد المحصول فإن وفى بالإيجار كفى الله المستأجر

شر الحجز .. وإلا طرق باب كهفه الهزيل «محضر» لبيع حياته الرخيصة في مزاد مجنون . !

ولمن تجبى التفاتيش خيرات أرضنا ؟ !

أنها تجبى لحفنة تعد على أصابع القدمين من الأشراف العاطلين . . وإن عرق آبائنا ودموع أخوتنا ليعتصران نبيذا لذيذا يكرعه الطغاة في مراقص مونمارتر .. وعلى ضفاف ايفان ..!

ورغم هذا . فنحن دولة ديمقراطية .. واشتراكية .. حكامها ظلا الله في الأرض (!) أما نحن ، فظلال الشياطين . !

ألا ليت الاقطاعيين ينصتون لصوت الإسلام إن كانوا مسلمين : « من استحل عرق الناس وبغى عليهم فلستم منه وليس منكم . إنه فتنة في الأرض وفساد كبير » . ولصوت الانجيل إن كانوا نصارى : « هو ذا أجر الفعلة الذين حصدوا حقولكم المنجوسة منكم تصرخ ، وصياح الحاصدين قد دخل إلى أذنى رب الجنود » . . وليتهم يستمعون زفرة الكادح المهيض ، وهو يعبر أرضه المنهوبة . . يتلقط منها الأعواد اليابسة . . ويقلب كفيه على ما أنفق فيها . . ويصرخ في عماء الليل صرخة الرجاء فينشد : ـ

لا بد من يوم ترد فيـــه المظالم
أبيض على كل مظلوم أسود على كل ظالم

نعم . لابد من يوم . . وإنه لقريب .

ـ نشرت فى «روزاليوسف» ٢٦ يونية سنة ١٩٥١ ـ
« وكانت الصحف قد نشرت تصريحا لأمين الجامعة العربية يومئذ يحبذ فيـه التآخى السياسى بين تركيا والبلاد العربية » .

تحسسوا آثار السوط التركى ! !

تحدث أمين الجامعة العربية فى مؤتمر الصحفيين الذى عقده فى أنقره ، فقال كلمات لو مزجت بماء البحر « الأبيض » لأحالته سوادا .. قال : إن وراء العرب والأتراك تراثاً إسلامياً خالدا يصلهما ويؤلف بينهما .

وقال : إن الدول العربية اليوم على بينة من السياسة الخارجية لتركيا وقد قررت أن تعاونها وتؤيدها .

ثم قال : أننا نوافق على قيام إسرائيل مؤقتاً ، ونترك للزمن أمر هزيمتها !

ولندع جانبا هذه العبارات الأخيرة ، فقد كان عدلا من الله أن يختار للتفوه بها نفس اللسان الذى تولى من قبل إثم الدعوة المرتجلة للحرب المقدسة (!) وليعلم «سيادته» أن التراث الإسلامى الذى يقف ـ كما ذكر ـ وراء العرب والأتراك .. هو نفسه الذى يحذر العرب من الأتراك فقد جعلوا الإسلام أحدوثة . . وجعلوا المسلمين خزيا . . ونحن اليوم وإياهم كما قال الشاعر :

مهلا بنى عمنا ، مهلا موالينا   لاتنبشوا بيننا ما كان مدفونا
الله يعـلم أنا لا نحبكمو   ولا نلومكمو ألا تحبونا

ولسوف تذكر مصر دائماً أن العهد التركى القديم الذى يعتبره « أمين العرب » تراثا إسلاميا ، كان شر عهود الغزو التى اقتحمت ديارها . . حتى لقد بلغ من طغاوته ووطأته أنه لا يزال يعاودنا بآثاره وأوزاره فالإقطاع ، والاستبداد ، والفساد . . هذه الموبقات التى لا تزال ناشرة فينا قلاعها . . من حسنات الاستعمار التركى وبركاته !

ثم ماهى السياسة الخارجية التركية التى تبينها الأمين العام وقرر مؤازرتها ؟

أهى أسهامها فى حروب كوريا . . ؟

أم انحيازها الصريح لمعسكر الدولار . ؟

أم اعترافها بدولة إسرائيل . . ؟

إن الزعماء الدبلوماسيين يستطيعون أن يتبادلوا عبارات النفاق فى غير تأثم ولا حرج . ثم تجىء كلمة الجماهير كفلق الصبح ليس بها زيف ولا زور.

ونستطيع نحن الذين نُحسّ حاجات شعبنا ومشاعره أن نعلن مقت الشعب الصريح لما تحاوله الرأسمالية الاستعمارية من ربطنا بذيل تركيا التى دخلت فى كَنَف الاستعمار . . وليعلم ساسة الأتراك أن الطريق الأمثل لبقاء الصداقة بين شعبنا وشعبهم ألا تقوم ارتباطات سياسية بين حكومتنا وحكومتهم . من نوع تلك الارتباطات المريبة المزمع عقدها . وعلى تركيا أن تنتظر طويلا ـ وطويلا جدا ـ قبل أن تطمع فى استغلالنا من جديد. لتنتظر ـ على الأقل ـ حتى تبرأ ظهورنا من آثار السوط التركى القديم الرجيم ثم بعدئذ ، فقد نفكر .

ومرة أخرى : لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا .

ـ نشرت فى «روز اليوسف» ٣ يوليو سنة ١٩٥١ ـ
«وكان مجلس الوزراء قد بحث فى اجتماعه مسئلة الاحتفال
بمرور مائة وخمسين عاماً على وفاة محمد على مؤسس
الأسرة العلوية» .

اليوم خمر .. وغداً خمر ! ..

عندما كان جيشنا يقتل فى فلسطين كان لأشرف القاهرة كل ليلة حفلة حمراء يجاهدون فيها جهاداً مبروراً ! ..

وعندما كانت حكومة إيران تغامر من أجل شرفها وحياتها وتسترد فى حزم بترولها المنهوب ، كانت حكومة مصر تساهم فى دعم شركات البترول الأجنبية بها وتهديها أربعة ملايين من الجنيهات المبللة بعرق الكادحين ! ..

وعندما كان مجلس وزراء بريطانيا مجتمعاً ليضع الرد الأخير على استجداءاتنا ، كان مجلس وزرائنا مجتمعاً ليقرر الاستعداد من اليوم للمهرجانات الفخمة التى ستقام بعد خمس سنوات بمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على ذكر محمد على باشا الكبير .

وعندما كان تشرشل يخطب فى مجلس العموم مطالباً حكومته بأن تفرض علينا مزيداً من القيود والسلاسل ، كان رئيس حكومتنا يخطب فى الهواء متحدثاً عن الزغاريد التى سمعها .. والهتافات التى استقبل بها أثناء رحلته من القاهرة إلى الثغر .

وبينما ذهب امبراطور إيران يوزع الأرض ، ويشيع الأقطاع إلى مقره الأخير ، أنطلق الأقطاع المصرى السائب يذبح الفلاحين . . ويدق رءوسهم « بالبالطة » تحت سمع الحكومة وبصرها !

وهكذا يقنعنا سادتنا وكبراؤنا بفساد ذلك الشعار الذى كان يقول : اليوم خمر . . وغداً أمر . . ويرفضون أن يقسموا حياتهم بين الجد والهزل . . ويصممون على أن تكون كلها خمراً . . ولهواً . . واستخفافاً !

وكل يوم لا يصعد فيه الحكم إلى أسفل فهو فى نظرهم يوم منحوس . . يعلنون إلى الله منه براءة ومتابا ! . . وشعارهم الذى يدينون له بالطاعة والولاء هو : اليوم خمر . . وغداً خمر . . وبعد بعد غد خمر ؟ ! . .

ومن كان من ذلك فى ريب ، فلينظر فيما حوله من مظاهر الحكم جميعاً يجد هذا الشعار مسطوراً عليها بخطوط من ظلمات ! . . هل تجدون فارقاً ــ أى فارق ــ بين صيف ١٩٥٠ ، وصيف ١٩٥١ ؟ كلا . . إلا أن يكون الفارق إيغالا فى الرجس وأمعاناً فى التحدى .

فى ذلك الصيف ازدهر أملنا فى القصاص من الذين خانوا جيشنا . . وفى هذا الصيف ازدهر أمل مجرميها فى أن يعيدوها من جديد جذعة ! . .

فى الصيف الماضى كنا نخشى أن يفقد النائب العام بعض سلطته . . وفى هذا الصيف فقدنا النائب العام نفسه ! . .

فى الصيف الماضى كانت لندن تستقبل وزير خارجيتنا ليفاوض وزيرها . . وفى هذا الصيف حرمتنا من هذا الشرف . . وأعلنت أنها غير مستعدة لاستقبال أحد ! .

أفمن أجل هذا الحكم السفيه يشق آباؤنا فى الحقول ، وأخوتنا فى المصانع ليدفعوا من نور أعينهم الخابية ، وخفقات قلوبهم المجهدة. ضرائب وأتاوات ؟ ! . .

ياويل مصر من حكامها الصالحين . . لقد جعلوها بصقة وعاراً . . .. وقطعوا ما بينها وبين العالم المتمدن من سبب . . ذلك أن شعار الحكم فى الأمم الحرة : اليوم أمر . . وغداً أمور . . وشعاره فى مصر المرزوءة : اليوم خمر . . وغداً خمور .

ـ نشرت فى مجلة « بنت النيل » عام ١٩٥١ ـ

فى ضوء الفجر

فى طريق واحد نمضى معا . . نحن الرجال والنساء .

جئنا هذه الحياة معا . . وبلونا فيها بلاء مشتركا . . وعلى أديم أرضها آثار أقدام الجنسين تروى فى بسالة وصدق نبأ كفاحهما المشترك من أجل البقاء والنماء . .

ومنذ متى ؟ . .

منذ شرع الانسان يزحف ويتسلق . . ويسمع ويرى . . بل قبل ذلك بزمان . .

وستظل هذه الزمالة قائمة ما دامت السموات والأرض . . وما بقى الرجل والمرأة . . .

وما من رسول ، ولا عبقرى ولا مصلح ـ سار عبر هذا الوجود وحيدا . . ! فقد كان بجوار كل واحد من هؤلاء أمه أو زوجه أو نصيرته . .

حتى الرسل . . ؟

نعم ـ حتى الرسل عليهم السلام . . وان الإسلام لمدين يوم نشوئه . . ومدين طول بقائه لسيدة . . هى خديجة بنت خويلد التى بذلت للرسول قلبها وجيبها . . وكانت مزيجا مدهشا من النضج والعظمة والثبات . .

فيوم استطير روع الرسول وعاد من غار حراء فزعا . . استقبلته خديجة، وعلى شفتيها ابتسامة كضوء الفجر . . وأخذت تثبته وتقول له :

(لا ترع . . والله لن يخزيك الله أبدا . .) — فكانت كلماتها هذه، نداء النجدة والأمان . .

ويوم أوى وصاحبه إلى غار (ثور) فرارا من سيوف قريش ، وصارت حياته وحياة صاحبه ، بل حياة الإسلام معهما رهنا بفدائى يحمل إليهما الغذاء والسقاء والأخبار — ظهر هذا الفدائى فى صورة امرأة . . هى أسماء ذات النطاقين . امرأة . . تزرى برجال كثيرين !

ويوم أراد الشاعر العربى أن يستجيش غيرتنا على العلم الخفاق الذى، يمثل قوميتنا وعزتنا لم يزد على تذكيرنا بجهد المرأة فيه فقال يخاطبه :

يا نسيج الأمهات ∴ فى الليالى الحالكات
لبنيهن الأباه
كيف لا نفديك ∴ كل خيط فيك
خفقة من صدرهن
دمعة من جفنهن
بسمة من ثغرهن
يا علم

وفهم المسالة على هذا الوجه يفتح أبصارنا على الحلقة المفقودة فى قضية المرأة المصرية . . وهى أنها إنسان . . ومطالبة مثل الرجل بأن

تبذل من ذات نفسها ، وتسهم فى بناء وطنها . . وإذن فمن حقها التمكن من جميع الفرص التى تتيح لها البذل والإسهام .

ومهما نالت من مباذخ الحياة وجاهها ، فستظل هملا . . حتى تظفر بحقها الذى أفاءه عليها الله .

إنك تستطيع التبرع بعشرين جنيها ـ مثلا ـ لمشروع خيرى ـ بسخاوة نفس وطيب خاطر . . ولكنك ترفض أن يغالطك (كمسارى الترام) فى مليمين اثنين لأنك تشم منه ريح استغلالك .

وهذه هى الحلقة المفقودة فى نزاعكم مع المرأة يا دعاة الفناء .

إنها تريد حقها . . ولو لم تمارسه . .

تريده . . وسيكون لها ما تريد .

ـ نشرت فى «روز اليوسف» ٨ يوليو سنة ١٩٥١ ـ
« دعوة للحكومة المصرية ـ يومئذ ـ كى تلغى معاهدة ١٩٣٦ ، وتضع عن الشعب إصرها »

ليت هندا أنجزتنا ما تعد ! . .

سبعون عاما توالت على مصر ، وهى جاثية أمام استعمار عات ظلوم .
ولطالما غربت الشمس فى هذه الحقبة عن أمم مصفدة مستعبدة . .
ثم طلعت عليها وقد أخذت فى موكب الأحرار مكانها . . عدا مصر . .
فإن الشمس تطلع عليها كل يوم بقيد جديد ،

وفى هذا المدى الطويل سخا علينا المستعمر بالوعد . . وسخونا عليه بالوعيد . .

أما هو ، فقد حقق بوعوده ومطله كل ما يتمنى ، ومكن لاستعماره ليس فقط فى أرضنا . . بل وفى جذور قلوب سادتنا وكبرائنا . . وربط فى مهارة وحذق وجودهم بوجوده . . ومصالحهم بمصالحه . . وبقاءهم ببقائه .

والذين يطالبون الوحش بأن يفتح فكيه ويتخلى ـ زاهدا مختارا ـ عن الصيد الدسم الرضراض جد ظالمين . لأنهم يكلفون الوحوش المفترسة ضد طباعها . . ويريدون أن يعطلوا رسالتها فى الحياة !

لذلك آن أن نعلم المستعمر أن الحق لنا . هو وهؤلاء الزعماء والوزراء الذين تراهم خارج الحكم أبطالا . . وتراهم داخل الحكم خفافيش . . !
هؤلاء الذين يعتاقون كفاح الشعب ويضللونه بما ينشئون من محادثات . .

ويتتبعون من مساومات . . ولا يريدون أبدا أن يحذقوا لغة العصر الذى نعيش فيه .

فمنذ وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، وألقت جرانها . . وعمرنا التافه الرخيص مضيع فى عبث المفاوضات ولغوها . . وفى هذه الفترة - ياقومنا - ولدت دولة الصين الحديثة واستقلت الهند . . وبزغت باكستان . . وتحررت من الاحتلال المسلح سوريا ولبنان . . ذلك أن فى كل شعب من هذه الشعوب « هندا » أنجزت وعدها . . وعزمت أمرها .

ففى الصين ماوتسى . . وفى الهند نهرو . . ورجال يلبسون (بالبطاقة) ويعيشون على الكفاف . . وما أن تمثل حال أممهم يقول الشاعر :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

حتى هبوا فى فدائية باسلة . وحققوا جميع الأهداف . . أما هند مصر - أى هند - فهى تجيد الاستبداد بأهلها والطغيان على ذويها . . حتى إذا لاقت سيدها المستعمر استحالت نعامة . . عذبة الحديث، رخوة الحركة ، حلوة الابتسامة . .

وبعد ، فأن بيننا وبين حكومتنا القائمة وعدا بأن تبذل من نفسها أضعف الإيمان فتلغى المعاهدة التى كان رجال هذه الحكومة وحزبها أول مسئول عن تزيينها للشعب وتجريعها له ! .

فليت هندا أنجزتنا وعدها .

ـ نشرت فى «روزاليوسف» ١٧ يوليو سنة ١٩٥١ ـ
« وكانت الهيئات السياسية فى مصر قد اتفقت على الاحتفال بذكرى ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو وبعد أن أذنت لهم وزارة الداخلية ، عادت فسحبت كلمتها ، بينما أرسلت بريطانيا لمصر احتجاجا وتهديدا ، توخت أن يسلم لحكومتنا فى ١١ يوليو بالذات » .

لا تأسفوا . . فقد احتفلت بريطانيا . . !

هذه الدولة العظمى ـ بريطانيا ـ تستحق على الرغم من لؤمها ، شكرنا وإذا لم تصدقوا، فقارنوا بين وفائها للتاريخ ووفائنا .. بين اعتزازها بذكرياتها القومية واعتزازنا .. بين حفاوة حكامها بالمناسبات الوطنية وحفاوة حكامنا .. وإن تريدوا لهذا مثالا . فيوم ١١ يوليو هو المثل .

. انظروا كيف احتفلت بذكراه هناك . . وكيف احتفلنا به هنا . . ! لقد تصفحت بريطانيا كتاب تاريخها ، فوجدت أنها فى يوم «١١ يوليو عام ١٨٨٢» فقدت فى معركة الاسكندرية خمسة فقط من جنودها . . وبضع مئات من القذائف والطلقات . . . وعز عليها أن يمر ذلك اليوم دون أن ترد الجميل للدم الزكى الذى سال من شهدائها الخمسة الأبرار (!) فماذا صنعت . . ؟ اختارت مثيل ذلك اليوم من عامنا هذا وعبأت كل نشاطها السياسى لدعم احتلالها وتسفيه المحاولات التحريرية التى تحاولها مصر « السالبة الناهبة » . كما وصفوها أخيرا . . ولم تعدم مناسبة تيمم بها حركتها وحفاوتها إذ وجدتها فى قصة السفينة « امباير روش » التى

مضى على تفتيشها ثلاثة عشر يوما دون أن يفكر الانجليز فى إثارة موضوعها . لكنها تذكرت أنها بين يدى مناسبة قومية . . وعيد من أعياد الغزو والقرصنة ، فكظمت غبطتها وادخرت جهدها وجهادها لهذا اليوم المشهود .

وجاء اليوم . . جاء ١١ يوليو ، فاذا مظاهرة كبرى فى مجلس العموم يقودها « موريسون » . . وإذا محطة إذاعة لندن تردد الجملة طول ليل « ١١ يوليو » ونهاره . . وإذا الصحف البريطانية كافة تفرد صفحاتها الأولى للحديث عن مصر الوقحة . . ! وشىء قد حدث ، يدل دلالة بالغة على أن بريطانيا بحركتها هذه لم تكن تريد سوى إحياء ذكرى « ١١ يوليو » بطريقتها الخاصة .. فقد أرسلت لمصر احتجاجا رسمياً ، وأبلغت سفارتها لدينا ضرورة تسليمه فى هذا اليوم بالذات .

هذا ما صنعته بريطانيا لذكرى ١١ يوليو وفاءً لقتلاها الخمسة ، فماذا صنعت مصر التى فقدت فى ذلك اليوم ألفى شهيد . . وفقدت حريتها واستقلالها . . ثم لا تزال تفقدهما إلى يوم الناس هـذا . ؟ ! انها لم تصنع شيئاً .

أما البرلمان الموقر ، فكان فى عطلته الاسبوعية .

وأما الاذاعة ، فقد كلفت أجهزتها المتعبة فوق طاقتها ، وأذاعت أغنية « وما نيل المطالب بالتمنى » ونشيد « حفظ الله الملك » . . !

وأما الحكومة ، فقد جلس رئيسها يسمع من « الراديو » خطاب الشكر الذى وجهه لمهنئيه بالعيد .

وجلس وزير خارجيتها يتلو فى مسكنة ومرارة احتجاج بريطانيا الصاعق .

وجلس وزير داخليتها « الناشىء » إلى مكتبه منتفخ الأوداج . . وكان لا يزال ثملا بخفق نعال فرقه « قره قول شرف » التى كانت تدق الأرض وهى تودعه فى فخر البحار بإذن ملكى كريم .. يتلق من البوليس أنباء الهدوء المخجل الذى فرضه على البلاد فى ذلك اليوم الرجيم .

ولكن لعل الحكومة معذورة . فإن الحصار البريطانى المسلح يوم « ٤ فبراير » لا يزال يطوق عنقها بالجميل .. ويذكرها بفضيلتى الوفاء والحياء .

وأما أنتم يامن أسفتم لأن حكومتكم لم تحتفل بالذكرى ولم تدعكم تحتفلون .. لا تأسفوا ، فقد احتفلت بها بريطانيا بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عن أذنابها وعبيدها الصغار .

ـ نشرت فى «روزاليوسف» ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٤
« وكان مجلس الشيوخ سينعقد فى أمساء ذلك اليوم نفسه ليناقش اقتراحا للحكومة بزيادة سعر الرغيف مليما . . »

وراء كل ثورة رغيف..!!

فى الساعة السادسة من مساء اليوم ـ الإثنين ـ يجتمع مجلس الشيوخ ليقرر مصير البطون الصائمة . . هل تقدم تضحية جديدة من أجل سفهاء مصر ومترفيها ، وتشد عليها حجراً آخر يسكت صياح الأمعاء المهتاجة . أم حسبها ما نالها من سغب ، وما أصابها من ضمور ؟

وجلسة اليوم امتداد لجلستين سلفتا ، أبلى فيهما الشيوخ المحترمون بلاء مبينا وارتفعت أصوات كريمة مولولة تقول : إذا كان فى الميزانية عجز ، فلا تجمعوه من أفواه الجياع . . بل خذوه من الرصيد المجنون الذى تنشئون به قصر محمد على فى شبرا . . ومن أدوات الزينة التى تبلغ قيمة المستورد منها ١٨ مليوناً من الجنيهات فى العام أو تزيد . .

ولقد تبدت فى الجلسة السابقة حقيقة فاجعة تكشفت عن الحضيض الذى انحدرت إليه قيمة الشعب فى نظر حاكيه . . ذلك أنه فى الوقت الذى تريد الحكومة فيه أن ترفع سعر الدقيق الشعبى ، والرغيف الشعبى تذهب فتخفض سعر الدقيق الفاخر الذى يصنع منه السادة فطائرهم المحشوة . . . !

مع أنها لو أعادته إلى سعره الأول لربحت مالا وفيراً ، لكنها بالمترفين رءوفة رحيمة . . .

ومشكلة الرغيف لا تتمثل فى زيادة سعره مليما ، بل فى المبدأ الخطير الذى تشير إليه هذه التصرفات المريبة . . فكلما جاءت الميزانية لم يجدوا سوى لحوم الفقراء وجسومهم يدسونها فى فمها المسعور وجوفها النهم . . .

وما مسئوليتنا نحن عن ميزانية لا توفر لنا غذاء ، ولا شرابا ، ولا علاجا ؟ . . ميزانية اتخذها الأشقياء كلأ مباحا لأطماعهم ومايشتهون على أن زيادة المليم مرهقة للمستهلك العادى وإن لم تشعروا ، فالمواطن الذى يعول خمس أنفس مثلا فى حاجة لعشرين رغيفا فى اليوم على الأقل . . وفرق السعر الذى يتحمله آنئذ هو ستون قرشا فى الشهر . . مبلغ تافه ؟ . . أليس كذلك ؟ ! . . لكننى أقسم لكم أنه فى حياة الملايين من هذا الشعب جسيم جد جسيم ! . وللمسألة وجه آخر خليق بنا أن نتدبره مليا ، فلطالما كان الرغيف عود الثقاب الذى أضرم الحطب وأحال الظالمين إلى رماد . .(!؟)

ومن يدرى . . فربما كان من الممكن أن يكتفى ثوار باريس بتحطيم الباستيل . . لا سيما وقد استسلم الملك لمطالبهم . وتنازل الأشراف عن امتيازاتهم ، لولا الرغيف . . فلقد حدث أن شح الخبز فى باريس فجأة . . وتجمع النساء أمام المخابز والأفران يصحن « الخبز . نريد الخبز . . . » وجاءت الجماهير تتراكض فى زحام طويل وصاحوا !

جميعاً : الخبز . . الخبز . . فلما لم يجدوه صاحوا : إلى فرساى . . إلى فرساى . . واندفعوا كسيل العرم حيث أكرهوا الملك والملكة وولى عهدهما على العودة إلى باريس وسجنوهم فى بقصر التويلرى . . ثم مضت الثورة لمداها البعيد . . وفى انجلترا نفسها ، لم تطق الجماهير ارتفاع سعر الرغيف أيام « المسغبة الأربعينية » فانطلقت تدمدم وتصيح : استلوا خناجركم ، وأعدوا مدافعكم . فإما الرغيف وإما الدماء . . وإما الحياة وإما الفناء . . . »

فياليت حضرات الشيوخ المحترمين يعلمون أن زيادة مليمين اثنين فى قانون الدمغة الذى فرضه الإنجليز على الأمريكان قبل استقلالهم ، هى التى شدت زناد تذمرهم وحقدهم . . ومن ذلك اليوم ، وبسبب مليمين . بدأت حرب الاستقلال وثورة الحرية . . نعم . . ياليتهم يعلمون . . وياليتنا نعلم .

ـ نشرت فى «روزاليوسف» ٣١ يوليو سنة ١٩٥١ ـ

« وكان النائب الإنجليزى « موريسون » قد وقف يخطب فى مجلس العموم ، متشدقا بحرص الإنجليز على حرية الشعوب » .

حقوق الإنسان .. وحقوق الإنجليز .. !

هذه المعارك الدائرة من أجل الحرية . ليست بيننا وبين الانجليز فى مصر .. ولا بينهم وبين الايرانيين فى طهران .. ولا بينهم وبين العراقيين فى بغداد . أنها أوسع نطاقا ، وأبعد غورا ، وأكثر جندا .. أنها بين حقوق الانسان ، وحقوق الانجليز .. بين الذين يحترمون الحق والذين يحتقرون الحق .. بين الذين يضعون القوة فى خدمة الأمن ، والذين يضعون الأمن فى خدمة القوة .. بين الإنسان حيث يوجد .. والانجليز حيثما يكونون !.. وهذه حقيقة يجب أن نحسها إحساسا واعيا ، ونرسم على ضوئها نهج كفاحنا من أجل الحرية والاستقلال .

إن وفاء الانجليز لحقوقهم يسبق سبقاً بعيداوفاءهم لحقوق الإنسان .. وما موريسون ومن سبقه من وزراء الخارجية البريطانية ومن سيلحق به ، سوى نبض متتابع متناغم لسياسة واحدة واضحة المعالم راسخة التقاليد .. سياسة تحترم القوة وتحتقر الواجب .. سياسة إذا عجزت عن السرقة بإكراه ، سرقت بقانون ! .. سياسة تتخذ من الشرف ، والمعاهدات ، والمنظمات الدولية ، كرات تتقاذفها بقدميها العارمتين

لتصيب الهدف .. وتظفر بكأس المباراة !..

والصراع بين الانسانية والانجليز يكاد يكون أزليا ، وإرادة الاستعمار تجرى فى كل بريطانى مجرى الدم فى العروق .

حدث مرة حين كانت حركة التوسع الانجليزى فى أفريقيا تجرى على يدى الرحالة رودس والمستكشف ليفنجستون أن ضل هذا الأخير فى متاهات القارة ومجاهلها وانقطعت أخباره . . فأرسلوا للبحث عنه صحفيا بريطانيا اسمه ستانلى . . فلم يكد يهبط أرض القارة حتى تحركت فى أقصى نفسه وراثاته الخبيثة ، ونسى المهمة التى جاء من أجلها .. نسيها ونسى الرجل الذى أرسل لإنقاذه ، فمضى يستكشف لأمته الوديان الخصيبة لتستثمرها وتستعمرها !.، ولقد صور برنارد شو هذه السليقة الانتهازية اللاهثة فى نكتة صادقة فقال : عندما يوجد ألمانى وفرنسى وبريطانى فى عربة قطار واحدة ، فإن أول ما يصنعه الألمانى حين يقف القطار فى المحط أن يضرب الأرض بقدميه ، ويطلب إلى الركاب أن يفسحوا له ليكون أول الهابطين . . أما الفرنسى ، فيبحث عن أجمل سيدة وينحنى لها ، ثم يتبعها كالكلب الودود . . أما الانجليزى ، فينتظر حتى تخلو العربة من جميع الركاب ، ثم يجوس بين المقاعد وتحتها لينشل ما عسى أن يكون بعض الركاب قد نسيه من حاجته ومتاعه . ! !

نعم . . هؤلاء هم الانجليز .. فإذا وقف موريسيون ليقول فى مجلس العموم أخيرا : « إن أهداف سياستنا الخارجية تتلخص فى تحقيق الحرية والأمن للشعوب » فكذبوه . . واعلموا أنه أراد أن يقول تحقيق

الحرية والأمن للانجليز ، فنسى . . وقال للشعوب ! . . وإلا فأين أمننا وحريتنا ؟ . . أن بجوارنا دولتين من دول « الجيب » كانتا مرتعا للاستعمار الفرنسى لجلا عنهما .. فلماذا لايذهب عنا أخوه الفاجر الزنيم ؟ لماذا يطوقنا موريسيون بأقدام مائتى ألف من جنوده المخمورين ؟ . .

صحيح أن الاستعمار الفرنسى وجد زعماء طالبوا بحرية بلادهم من قلعة راشيا . . بينما زعماؤنا يطالبون بها من داخل قصورهم اللاهية الغارقة فى الترف والنعيم ! ولكن شيئاً آخر يجب ألا يغيب عن وعينا ، هو أن الاستعمار البريطانى قرر أن يرث كل أنواع الاستعمار فى الأرض ما دام فيها إقطاع يسانده ، ورأسمالية تعاضده . . وباشوات يشرفهم أن يخسروا قضايا بلادهم ، ويربحوا صداقة الانجليز .

ــ نشرت فى «روزاليوسف» ٧ أغسطس ١٩٥١ ــ
« وكان وزير الخارجية سيلقى بالبرلمان فى مساء ذلك اليوم بيان الحكومة المصرية عن المعاهدة ».

هاتوا القــــلم ! . . .

إذا كان ثمة دولة تدفع مصر إلى الثورة بكلتا يديها ، وتحرضها على الحرية والاستقلال . . فهذه الدولة هى بريطانيا ! . . ولو أن التصريحات والخطب التى يتجشؤها الوزراء الانجليز لامست أسماع الموتى لهبوا أحياء ثائرين ! . . ترى ماذا تنتظر حكومة صاحب الجلالة ؟ ! . . هل تنتظر أن يأتيها الله فى كوكبة من الملائكة المدججين بالسلاح ؟ . . أو تنتظر أن يمن عليها آتلى بالاستقلال والحرية . . ؟ !

إن كانت الأولى ، فلتعلم أن الله لايساعد الأذلين . وإن كانت الثانية ، فلتعلم أن آتلى ليس بطائش ولا بمجنون ! . . لماذا يتخلى عن بلد يدر له لبناً وعسلا ؟

هل هناك ثورة تخرجه ؟ . . هل هناك حكومة تحرجه ؟ . .

إن اتلى ليس فيلسوفا ولا شاعرا ! .. ولا رئيسا لوزارة مصرية !..
إنه رجل يؤمن بالواقع ، ويلبى نداء القوة ، ولقد خطب يقول : « لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق حين تركنا الهند وباكستان ، وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها » ! . . أى أن خوفه من الشيوعية ،

وحذره من أن يمد زعماء تلك البلاد أيديهم إلى الكرملين ، هما الحافزان اللذان أكرهاه على التسليم بما لهذه الشعوب من حق فى السيادة والحرية !!..
لكن آتلى عند ما وقف يتحدث عن مصر منذ أيام معدودة قال :
« إننى لا أريد حتى الآن أن استعمل لمصر العصا الغليظة » .

إنه رجل عاقل ، يعرف جيداً الفارق العظيم بين قادة الهند ، وقادتنا !.. بين حكم صفىّ الإقطاع وسرّح المهراجات، وحكم بسط وجهه على التراب ليكون مداساً وموطئاً للإقطاع والرأسماليين العتاة ! . .

وبعد . . فسيقف اليوم معالى وزير الخارجية المصرية فى البرلمان ليلتقط القفاز الذى قذفه موريسون ، واتلى ، فماذا سيقول !. . إن كاتب هذه السطور من المواطنين الذين لا يزالون يكنون لصلاح الدين (باشا) كثيراً من الحب وغير قليل من الثقة ، وهم لا يتمنون أن يسمعوا منه سوى كلمتين اثنين هما : هاتوا القلم ! . .

وإذا كانت إيران قد سارت فى طريق الحرية بكلمة الكاشانى : هاتوا الكفن . . فسنبدأ كذلك السير فى نفس الطريق بقولنا : هاتوا القلم . .

نعم . . هاتوا القلم ، وبطرف سنه ألغوا معاهدة الخزى والعار . . ماذا سيحدث لو فعلنا ذلك ؟ .. هل سيسلط الانجليز علينا إسرائيل ؟ . . لقد فعلوها والمعاهدة قائمة . هل سيرفضون تسليحنا ويهددون أمننا ؟.. لقد فعلوها والمعاهدة قائمة . هل سيحاصروننا بالدبابات ، ويقضمون أصابع الجرس ، ويدوسون كرامتنا بأحذيتهم الثقيلة ؟ . . لقد فعلها

كثيرين والمعاهدة قائمة . أيضاعفون جيوش الاحتلال ، ويزيدون المدائن الباذخة التى يشيدونها فى فايد والقاهرة ؟ .. إن جميع الاحتمالات السيئة التى نتهيب مواجهتها حين نلغى المعاهدة واقعة بنا فى ظلها . . ولأن يحتلنا الانجليز بإكراه خير وأكرم من أن يحتلونا بمعاهدة ! . . ولو لم يكن من مغانم هذا الإلغاء إلا أنه سينهى الركود المخيم على قضيتنا وينقلنا فى الطريق خطوة إلى أمام . . ويواجهنا بواجب جديد . . لو لم يكن من حسنات إلغاء المعاهدة إلا ذلك ، لكفانا . .

أما الخطب .. فقد قال النقراشى أن معاهدة ٣٦ أثر من آثار القرصنة التى نجاهد فى نسيانها . . وقال النحاس عام ١٩٤١ من الخير لمصر أن تتحلل من هذه المعاهدة وتبحث لها عن حليف آخر غير بريطانيا إن كانت بحاجة إلى حليف .

فماذا يقف بنا عن التنفيذ ؟! . . ألغها يا وزير الخارجية إذن بجرة قلم . .

ألغها . . وتوكل . .

ـ نشرت في «روزاليوسف» ٢١ أغسطس سنة ١٩٥١ ـ
« وكانت الحكومة قد اعتمدت مبلغ اثنين وستين ألفاً من الجنيهات ، لشراء سيارات للقصور الملكية »

صاحب الجلالة .. الشعب .. !!

تلقب الصحافة بصاحبة الجلالة ، ثم لا يرى القانون في ذلك تجديفاً ولا عيباً ، نريد أيضاً أن نلقب الشعب بصاحب الجلالة ، فهو أحق بها وأولى (؟) .. ولماذا لا نكون كذلك ؟ .. نحن الذين ندفع الضرائب ، وننشيء الميزانية .. نحن الذين نشق الترع ونسقيكم ماءها .. ونحرث الأرض ونطعمكم ثمارها .. وندير المصانع ونهبكم نتاجها .. نحن الذين نصنع لكم من بؤسنا ثراء .. وننسج لكم من عرينا كساء .. وإذا كان في مصر أحد جدير بأن تخشاه الحكومة وتجامله ، فهو نحن .. لأننا أصحاب البلد الذين نولي ونعزل .. ونضع ونرفع .. ونعز ونذل .. وإذا جردتنا ظروف طارئة من سلطتنا يوما أو بعض يوم ، فردها المحتوم إلينا .. وإلينا وحدنا ، في يوم ترونه بعيداً ونراه قريبا .

نحن الذين جئنا بالأسرة العلوية .. وفي أحلك ساعات ضعفنا ذهبنا لنعزل خورشيد باشا ونضع مكانه محمد علي . ولما قال لنا : إنني وليت بأمر السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين .. صرخنا في وجهه : بل نحن الذين وليناك ونحن الذين سنعزلك .. وبعد أيام كان يتدحرج في طريقه إلى تركيا ، وكان محمد علي يجلس مكانه .. بأمرنا ، نحن صاحب الجلالة

الشعب .. وهذا الوفد .. نحن الذين جئنا به إلى الحكم فى ضجة حافلة .. ومع ذلك .. فماذا حدث ؟ . .

حدث أن وقف الشاذلى (باشا) بمجلس الشيوخ منذ أيام يقترح حذف اثنين وستين ألف جنيه من ميزانية ديوان الملك ، لأن السيارات المزمع شراؤها بهذا المبلغ للديوان لا تقتضيها ضرورة ملحة فى هذا العام على الأقل .. فوقفت الحكومة ممثلة فى وزير كان الناس يتهمونه ظلما بالذكاء الخارق والوطنية الشابة . . فدافعت عن « ثمن السيارات » وأقنعت المجلس بوجهة نظرها . . وقد لا يكون ثمت بأس فى أن يعتمد لديوان الملك بدل الستين ألفا ستمائة ألف لو أن ريح الميزانية تجرى رخاء . . لكن المؤلم والمحزن أن الحكومة التى جاد ولاؤها للديوان بهذه الكماليات . . حرمت الشعب من ضروراته الكبرى . . ولطمت خدودها ولا تزال تلطمها للعجز الفادح الذى يهدد الميزانية . . وحذفت كثيراً من الاعتمادات الهامة التى لا غنى لأصحابها عنها .. فستون الف جنيه حذفتها من ميزانية الأزهر رغم وعودها الكاذبة التى بذلتها .. ورغم « ٣ مارس » الذى ضربت فيه العلماء ضربا مذلا مهيناً !.. ومائتا الف جنيه ، لإصلاح تلال زينهم حذفتها كذلك ، لتظل الصراصير الآدمية التى تعيش هناك محرومة من أن تجد لها فى وطنها وطناً .. وفى بلادها سكنا !! .. ومئات الآلاف ، تبخل بها على وزارة المعارف كى لا يتاح لأولاد الكلاب أن يتعلموا كأولاد الذوات ، وأبناء الصالونات ! .. وأخيراً تجىء الطامة الكبرى ، فتؤكد صحيفة حكومية بأن كادر الموظفين لن ينفذ هذا العام لأن الميزانية فى حالة إعياء ! . .

ولكن اسمعوا أيها العابثون . لقد صنع أخ لكم من قبل هو نوبار باشا مثل صنيعكم هذا . . وأفرغ مال الشعب فى ديوان الخديو . . فقصده الشعب فى نظارة المالية وضربه ومرغه فى التراب . . وجاء إسماعيل لينقذ بنفسه خليله فرفض الشعب وساطته ولم يدع جثة نوبار حتى تعهد إسماعيل برد الاعتمادات المحذوفة (!) وصحيح أننا لن نضربكم لأننا نحترم القانون . . بيد أننا سنسقطكم إذا لم تثوبوا . . سنسقطكم دون أن تغنى عنكم آلهتكم شيئا . . ويومئذ تعلمون علم اليقين أن هذا الشعب صاحب جلالة .

ـ نشرت فى « روز اليوسف » ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥١ ـ « وكان السيد عبد الله خليل رئيس وزراء السودان اليوم قد هاجم نظام الحكم فى مصر ، وعرض بمخازى الاستبداد الملكى » .

لعل الصم يسمعون . . !!

تحدث عبد الله خليل بك رئيس الجمعية التشريعية بالسودان منذ أيام . ورغم أن حديثه جاء عبئاً جديداً على أعصابنا ، إلا أنه جدير بالتأمل والاعتبار .

فلقد ذكر أن السودانيين لا يكرهون المصريين . ولكنهم يكرهون الحكم الفاسد فى مصر . . وهم لذلك لا يريدون أن يدخل هذا الحكم فى بلادهم . لأنه يرجعهم إلى الوراء ويحرمهم من ثمرات التقدم الذى أحرزوه . .

ومهما نسىء الظن بكلمته . فأننا لا نستطيع أن ننعتها بأقل من أنها « كلمة حق أريد بها باطل » ! . . وعندئذ تبرز مسئوليتنا الكاملة لأننا أمددنا أصحاب هذا القول بالأسباب الوجيهة التى يبررون بها موقفهم ، ويزخرفون بها منطقهم . .

نعم ، كلمة حق . . ففساد الحكم فى مصر لا ريب فيه . بل هو اليوم فى عصره الذهبى ، يلهو بمقدرات الشعب ، ويعبث بمصاير الجماهير ! . . ولا نكاد ننظر فيما حولنا حتى نلق فسادا يزاحمه فساد .

فالبوليس الذى مهمته أن يتعقب الأشرار يتعقب الشرفاء . . والمال الذى جعله الله للناس معاشاً ، يوقف على شهوات الفراعين . . ثم لا يخجل الحاكمون أن يعلنوا حين يخطبون أو حين يتحدثون إلى الصحافة . أن مصر سعيدة بحكمهم . . وأنها فى ظلهم ، محراب الفضائل النفسية ، وواحة الرضاء ، والعدل ، والحرية ؟ ! . .

ما أشبههم بابن إياس حين يؤرخ لبعض السلاطين فيقول : « كان السلطان ـ فلان ـ صالحا فاضلا كريماً ، ولم يكن له من المآخذ سوى هنات هينات . . . كالزنا واللواط ! ! » . . .

فمصر التى يحدها من الجهات الأربع الفقر والجهل والمرض . . . والتفاتيش ! .

مصر التى يشرب « أصحابها » ماء آسنا عكراً ، بينما كلاب مجرميها تعب النبيذ وتأكل الكافيار ! . .

مصر هذه . . هى الفردوس المفقود كما تزعمون . . والفساد الذى يتخبطها ليس سوى هفوات هينات كالسرقة . . والاستبداد . . . والاغتيال ! . .

وليس شذوذ هذا الفساد فى وجوده بل فى اصراره . . فهو كأجساد محترفيه . . كلاهما فى سباق هائل نحو التضخم والاكتناز ! . . ووزره لا يحيق بمحترفيه وحدهم ، بل بالوطن جميعه . والدليل على هذا كلمة عبد الله خليل التى أثارت فينا هذه الأحاسيس . .

والدليل أيضاً ذلك التصرف الأخير الذى إستغل فيه أبطال المانش

استغلالا وضيعا . . فلقد حاول العابثون الكبار أن يمسحوا الأهانة عن أنفسهم فأهانونا معهم . . وفى الوقت الذى أمروا فيه أبطالنا برفض جوائز رياضية . . أصروا هم، ولايزالون مصرين على حمل أوسمة وألقاب انجليزية أنعمت بها عليهم حكومات الاحتلال ! . . لماذا لا ينزل الحاكمون عن صدورهم السمينة هذه النياشين ؟ . . لعل عذرهم انها بضاعتهم ردت إليهم . . وأن بريطانيا كانت مدينة لهم بهذه الأوسمة منذ وقف الخديوى توفيق يضع نيشان « النجمة الحمراء » على صدور الجنود الانجليز الذين قتلوا فى معركة التل الكبير أباءنا واستباحوا نساءناء !! . . نعم لعلهم معذورون . .

نحن مع اشمئزازنا مما تخطه « الديلى ميل » نرى أن دورها لم يجاوز وصف الجريمة . . أما دوركم أنتم ياحكامنا الغلاظ فكان صنع الجريمة . . فقبل أن تطهروا المصب ، طهروا المنبع . . وإلا فستظلون ، وسنظل معكم قهقهة عالية فى أفواه الساخرين .

وبعد ، فإن المسئولين عن فساد الحكم فى مصر مسئولون بالتالى عن تسليح البريطانيين والانفصاليين بحيثيات الانفصال . .

وإن كلمة عبدالله خليل لنذير بين يدى مؤامرة قادمة . . فعسى العابثون أن يرشدوا . . ولعل الصم يسمعون .

ـ نشرت فى « روز اليوسف » ١٧ سبتمبر سـنة ١٩٥١ ـ « وكانت مجلة روز اليوسف قد نشرت فى عدد سابق أن شخصية كبيرة تصطاف فى أوربا قد طلبت من الإنجليز والأمريكان إطلاق يدها لتأديب الشعب المصرى وكانت المجـلة تعنى بالشخصية الـكبيرة الملك فاروق نفسه » .

كن ملـكا .. يا جورج !!!

يتحدثون عن مشروعات جديدة يحاولون بها تـكبيل الحرية الظافرة التى خلفتهم بعد محاولتهم الغابرة صرعى .. ويتحدثون عن الـكبير الذى توسل إلى الإنجليز أن يطلقوا يده ليربى الشعب الذى يخاف .. ولا يستحى .. ؟ ! وتـكدح أذهان السادة كدحا عنيفا باحثة عن البطشة الـكبرى التى تريحهم من الرواد الأحرار الذين مضوا فى طليعة وعى جارف يرتادون له الطريق المحفوف بالوحوش والذئاب ...

وتنظر إليهم الحرية ضاحكة ساخرة إذ قد علمها الزمن الطويل أن أعداءها دائما فى خدمتها طائعين ، أو مكرهين .. فقديما ـ مثلا ـ أراد فرعون غليظ أن يبطش بطليعة حرة كفرت بألوهته ، فاستضافها إلى مشانقه الظالمة ، ومضى الأحرار نحوها كما يمضى العابد إلى محرابه .. وكما يسارع العاشق إلى موعد حب جميل .. وشنقوا وهم يصرخون فى وجه الطاغية : يا فرعون .. اقض ما أنت قاض .. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ..

ترى هل بقى فرعون فيها من الخالدين . . ؟ كلا ، ولقد سار شعبه على ضوء المشاعل . . أعنى المشانق حتى وصل . . أما فرعون ، فابتلعه اليم وهو ذميم . وبعد أن أشبعه الموج الثائر صفعا وركلا بصقه على الشاطىء ليظل عبرة زاجرة لأخوانه الفراعين . . ولكن الفراعين لا يعتبرون ! ! .

ألا ليت المسئولين فى هذا البلد يقرأون التاريخ : إذن لرأوا وراء كل ثورة قامت على ظهر هذا الكوكب ركاما هائلا من القوانين الظالمة لم تكن الشرارة الأولى تلامسها حتى تتداعى إليها وقودا هائلا يغذى أوراها ، ويصلى سعيرها .

انظروا . . . ! عندما همت بعض الولايات الأمريكية بالتحرر من التاج البريطانى . . خشيت أم الملك جورج الثالث أن تنتقل عدوى الحرية إلى بقية الولايات . . وتقدم بعض مشيرى الملك وهمسوا فى أذنه ألا يصارع أرادة شعب آثر الحرية أو الموت . . بيد أن أمه صرخت فى أذنه الأخرى : كن ملكا يا جورج . . وأصغى جورج لصوت أمه وأدرك قصدها . . فأسرف فى إصدار القوانين الباغية ، وتحدى الثوار تحديا قاسيا . . هنالك وقفت الثورة ينادى بعضها بعضا . . وقامت حرب الاستقلال التى أودت بسلطان جورج . . وخلصت أمريكا من التاج . . إلى الأبد . . ومن الحكام من لا يجد بجواره أما تصيح به كن ملكا يا جورج . . ولكن غروره يقوم مقام الأم الغائبة..«!» فيضله ويغريه . ويمعن فى استهتاره بحقوق الشعب ، وإرادته ، وطاقته . .

ألا إن مصارع السوء لفى انتظار هذا اللون العابث الضال من الحاكمين، وهم حين يذهبون لا تبكى عليهم السماء . . والجولة الأخيرة من نصيب الحرية دائما .

فليقض فرعون ماهو قاض .

أما نحن ، أولئك الذين نذرنا حياتنا لحرية هذا الشعب المستضعف فلن نتراجع قط . وسنلاقى جميع المحاولات المضادة بسخرية ، مرددين قول ابن تيمية العظيم :

ما يصنع أعدائى بى . . ؟ ان سجنى خلوة . ، ونفيي نزهة . ، وقتلى شهادة . . فماذا يصنع الأعداء بى . ؟

ـ نشرت فى روز اليوسف ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥١ ـ
« لمناسبة ذكرى أحمد عرابى »

الإنجليـــز دائما .. !!

الآن .. ونحن نعيش فى ذكرى الأيام التى غادر فيها عرابى هذه الحياة الدنيا ، نستطيع أن نجد فى حديقة تاريخه زهوراً كثيرة ننثرها على ذكراه .

ونستطيع أيضاً ـ وهذا هو الأهم ـ أن نخرج بحظ وافر من التجارب والعبر التى تشد أزرنا . وتضىء وعينا خلال كفاحنا المنتظر مع الإنجليز الغاصبين .. فمما لا ريب فيه أن الأمور لو سارت بين السلطة المصرية ، وكان يمثلها توفيق .. والشعب المصرى ، وكان يمثله عرابى .. نقول : لو سارت الأمور بينهما كما كان كلاهما يريد ، لما حدثت تلك المضاعفات السيئة التى حملت « توفيق » على الإسراف فى ممالأة الإنجليز .. وحملت « عرابى » على الإسراف فى معارضة توفيق .. لكن الإنجليز كانوا وراء الفتنة خطوة ، خطوة .. ولو لم يكن بمصر فى ذلك الحين « عرابى ، وتوفيق » لخلقت السياسة البريطانية نظيرين لهما .. يؤديان نفس الدور ، ويتيح النزاع بينهما نفس الفرصة .. ذلك أن « دزرائيلى » قد ترك لأمته قاعدة ذهبية تمضى على نهجها هى ذى : ـ

« لا بأس بالغدر والكذب ، والوقيعة إذا كانت هى الطريق » .. وبريطانيا تعلم أنه لاشىء يتيح لها غزواً خاطفاً ناجحاً مثل أن تقسم البلد الواحد على

ذاته .. وتؤلبه على نفسه . . وتضرم فيه نار حرب أهلية يفنى فيها بأس المقاومة . . وهذا بالضبط هو الدور المخدر الذى لعبته فى مهارة وحذق ، فحولت الخلاف العارض بين العرابيين وتوفيق إلى إعصار رهيب تسللت هى من خلال رعوده وبروقه وظلماته إلى مصر اليتيمة ، فاختطفتها وزينت بها تاجها الكريم ! . .

ولقد كان من الممكن أن ينتهى خلاف عرابى وتوفيق بغروب شمس يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ - حيث نزل الخديو على رغبات الجيش المحاصر لقصر عابدين ، وقرر إجابة المطالب الوطنية التى تقدم بها عرابى لو لم تكن هناك أنامل شريرة تعزف على أوتار الضعف البشرى فى كلا الرجلين لحن القطيعة ، والتحريض ، والإيغار .

ألم ينصح « كوكسن » الخديو توفيق بأن يطلق رصاص مسدسه على عرابى حين دنا منه يحادثه أمام قصر عابدين مؤكداً له أن هذه المباغتة ستلقى الرعب فى صدور الجنود فيولون الأدبار . . ؟ ! وهكذا انطلقت خفافيش الظلام تعمل لليوم العبوس ، فنجد « كوكسن ، وكولفن » الإنجليزيين يساومان عرابى . . فإذا فشلا فى الاستحواذ عليه ركضا وراء توفيق حيث ملآ روعه بمخاوف كاذبة ، كانا فى نفس الوقت يملآن روع عرابى بمثلها . حتى وقعت الواقعة فى اللحظة التى أرادها الإنجليز . . وبالطريقة التى رسموها !

فإذا ذكرنا اليوم أخطاء توفيق حين أذاع منشوره المثبط الذى وصف الإنجليز فيه بأنهم وكلاؤه . . ، ولا يريدون إلا الإصلاح . .

وحين أناب عنه « سلطان باشا » ليزامل الجيوش الباغية فى التل الكبير وليفرش لها طريقها بالخونة والمارقين . . وحين استعرض هذه القوات فى ميدان عابدين وفوق رأسه علم بريطانيا يخفق خفقات التحدى والازدراء . . ثم حين أقام للمجرمين الذين قتلونا حفلا ساهراً بقصر الجزيرة وقلدهم فيه الأوسمة فلنذكر معه الاستعمار البريطانى الدنىء الذى أورى نار الفتنة إيراء خبيثا ، والذى اضطر « توفيق » اضطراراً قاسيا لأن يمثل فى هذه الكارثة دور الأم الزائفة فى قصة سليمان الحكيم . . تلك الأم التى رضيت أن تغوص السكين فى أحشاء الرضيع لأنه لم يكن بينها وبينه دم ولا قربى . . !!

فلينضر الله ذكرى عرابى . . وليغفر الله لتوفيق

أما انجلترا . فقد هممت أن ألعنها . . ثم تذكرت أن حكومة جلالة الملك ستلعنها عما قريب .

ـ نشرت فى «روزاليوسف» أول اكتوبر ١٩٥١ ـ
« لمناسبة عيد الهجرة النبـــوية »

المهاجر . . الذى حطم الظلم !!

فى غد يبزغ عام هجرى جديد .. وفى غد يقف رئيس الحكومة ليلقى خطابه التقليدى فى هذا العيد . . ترى ماذا سيقول (رفعة) الرئيس ؟ . .

لقد سمعته فى مثل هذه المناسبة خطيباً بالنادى السعدى ، أيام كان خارج الحكم ، وكانت محاولات اغتياله تطارده فى سفه وجنون . . وفى نهاية خطابه الطويل شرع يناجى الرسول عليه السلام فى ابتهالات ضارعة فيقول : « . . ســـيدى أبا الزهراء . تعال وانظر أمتك ، وهى تحكم بالحديد والنـار . . وتصطلى بالجريمة والعار . . يسوسها من استبدلوا بالطهر عهراً . . (!) وبالفضيلة فجراً . . ومن يسطون على المحصنات . . ويبعثرون أموال الشعب على الشهوات » .

وكانت إيماءات أصابعه ، وغمزات عينيه ، وانفعالات رأسه تضع للسامعين جميع النقط . . على جميع الحروف ! . .

ترى هل سيناجى الرئيس أبا الزهراء فى غد ، بمثل ما كان بالأمس يناجيه ؟ . أم أن فجر الفاجرين قد استحال طهراً . . وعمليات السطو على المرضعات ، وبعثرة الأموال على الشهوات قد صارت مثوبة وأجرا ؟ . .

ما علينا . . ولنسق حديث الهجرة ، فإن لنا فية عظة وعبرة . .

كانوا طبقتين . . السادة ، والعبيد . وانبثق من ضمير الصحراء الساجية رسول كريم . جاء يدق أجراس المساواة ، ويحطم أغلال الرقيق . . وقاد أبو جهل المعركة ضد الحرية . ولكل أمة أبو جهلها . . وذهب وفد الضالين يوما للرسول وتقدم الوليد يسأله : يا محمد ، أجئتنا لتجعلنا وأشباه ابن سمية الذليل سواء ؟ !. .

فأجابه محمد : نعم . ولنجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . . ونمكن لهم فى الأرض ! . . وبهذه العبارة الثورية أعلن محمد حرية العبيد وسيادة المستضعفين . . ومضى يؤكد أن الأرض لله . . يورثها من يشاء من عباده . ، وأن هؤلاء الكبار الذين يتوارثون عن آبائهم مناصب البلد وامجاده لا يساوون عند الله جناح بعوضة ، ما داموا يفقدون الفضيلة النفسية . . وأن دولة المضطهدين يجب أن تقوم ، ليرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وانطلقت أحقاد السادة تعوى وتزمجر . . اقتلوا محمدا . . واقتلوا هذه الطليعة الناشئة فإن فى بقائهم فناءنا . .

وهاجر الرسول وصحبه ، لا فراراً بحياتهم . بل فراراً برسالتهم التى يجب أن تبلغ مداها حتى تنزل الأرباب الكاذبين عن عروشهم . . وحتى تفىء بالعبيد المحرورين إلى ظل لا قيظ فيه ولا هجير . ومضت الأيام تترى . . وعاد محمد إلى مكة يقود جيش الخلاص ومن فوق رباها العالية ألقى على الأفق البعيد نظرة حالمة . . وسرت فى نفسه همهمة خافتة . . أين أبو جهل . . أين الوليد . . أين السادة الأعلون

جميعا ، لطالما عذبوا الجماهير ، واستباحوها وظنوا أن لا غالب لهم حتى دهمتهم الواقعة بغتة ، فإذا هم جميع هالكون ! ! . .

ونفذ إلى الأفق الأبعد . . وراح ينادى أجيال أمته الوافدة .. وليست أمته المسلمين وحدهم ، بل المضطهدين فى كل زمان ومكان . . راح يناديهم « لا هجرة بعد الفتح . ولكن جهاد ونية » . وعلى المستضعفين فى كل أرض أن يواجهوا الظلم حتى يزلزلوا أركانه . . ويقوضوا بنيانه . .

وتوالت صيحاته تدمدم على عروش القياصرة . . وذات صباح دخل عليه عمر بن الخطاب فوجد الحصير الذى ينام عليه قد أثر فى جنبه ، فبكى ، وقال : يارسول الله . أفلا تتخذ لك فراشا لينا ؟ . .

فأجابه الرسول فى تواضع : أتظنها كسروية يا عمر . . إنها نبوة ، لا ملك . . وإن شقاء أمتى يوم يكون فيها كسرى . . ويكون فيها قيصر ! . .

سيدى أبا الزهراء . . سلام عليك . والآن عرفنا لماذا نذل . . ولماذا نشقى .

ـ نشرت فى روزاليوسف ٩ أكتوبر سنة ١٩٥١ ـ
« لمناسبة بدء العام الدراسى الجديد » وموقف رجال البوليس من الطلاب ، ومن تحركات الوعى الزاحف » .

هذا البوليس .. فى خدمة من ؟ !

فى الوقت الذى دقت فيه أجراس المعاهد معلنة بدء عام دراسى جديد . . كانت دقاتها كذلك إيذانا ببدء الجولة الأولى من معركتنا الوطنية المنتظرة . . تلك المعركة التى توعدت بها الحكومة الاستعمار البريطانى منذ أعلنت عزمها على إلغاء الصك العبودى المسمى «معاهدة ٣٦».

أما رأينا فى هـــذه الجولة المنتظرة ، وكيف ينبغى أن تمضى فسيكون موضوع كلمة أخرى . بيد أننا اليوم نريد أن نرسل صيحة التحذير مما قد يرد الطعنة إلى صدورنا فى صورة فتنة أهلية ـ ولا أقول حربا أهلية ـ تجعل بأسنا بيننا شديداً . . وأكيداً .

ففى مصر ، كما فى بلاد الله بوليس . . ولكن بوليسنا المصرى وراءه قوة غير منظورة تتخذه فى يدها أداة عمياء تبطش بها كل وعى بازغ ، وكل محاولة وطنية . . يصور لنا ذلك فى التاريخ القريب حادث كوبرى عباس . . ويمثله فى التاريخ الأقرب حادث يوم ٢٦ أغسطس ، من هذا العام ، حيث اعتدى البوليس على الوطنين المنصرفين فى سلام من حفل قومى اعتداء وصفته جريدة المصرى نفسها فى صفحتها الأولى بأنه اعتداء وحشى منقطع النظير . . ونحن نعتقد أن الكثرة الغالبة

من رجال البوليس المعتدين مجنى عليهم . . إذ هم يؤمرون والويل لمن لا يطيع . . لكن تلك القوة المجهولة الآمرة المسيطرة ، ما هى . . وأين تكون . . وهل يتصرف بعض كبار رجال البوليس السرى والعلنى وهم على وعى بأهدافها . . أم هم ضحايا ، ومخدوعون ؟ ! لقد جمعتنى الصدفة بكبير منهم له فى مناوأة الشيوعية دور خطير ، وما أن علم أننى من «الشرقية»، حتى اصطكت أسنانه وهو يقول: «آه .. دى البلد اللى كانت عاوزة تنهب التفتيش » ؟ ! . . ولكى يرى القارىء طريقة تصور هؤلاء المسئولين للحوادث والأشياء ، فحسبه أن يعرف بإيجاز حقيقة هذا النهب المزعوم.. فقد حدث فى عام «١٩٤٩» أن أكره تفتيش الأمير محمد عبد الحليم أهالى البلاد على دفع زيادة ظالمة ، فتظلموا . . وأضرب عماله الزراعيون عن العمل . . ولكى يبرر التفتيش شن حملة إرهابية عليهم ، عمد إلى بضعة أحمال من التبن المختزن وأشعلها بعود من ثقاب . . وإذا السماء تمطر بوليسا وتعيش القرية وما حولها ليالى وأياما كثرا تحت رحمة السياط والعذاب . . بل لقد بلغ الامعان فى الوحشية حدا جعل البوليس يربط بعض الفلاحين وعلى رأسهم أحد مشايخ البلد بأذناب الخيل التى انطلقت تعدو بهم إلى «المركز» فى سرعة العاصفة . . وحالت الأحكام العسكرية يومئذ دون إذاعة المأساة . . وهكذا تصور رجل البوليس الكبير ، صورة البائسين واعتبرهم لصوصا ناهبين ! ! . .

وإذا استطعنا أن نجد تفسيراً للعون المتبادل بين الأقطاع والقوة المجهولة وراء البوليس ، فلن نستطيع التماس تفسير للتوافق القائم بينها

وبين الاستعمار . . وإنا لنرجو ان ينفُض بوليسنا عن كاهله وزر هذه القوة الخفية . وأن يمتثل فقط لكلمة الضمير ولروح القانون . . لقد حاولت قوة مجهولة أن تسخر بوليس بعض المستعمرات الامريكية ضد ثورتها الاستقلالية فلوى « وشنطن » زمام الفتنة بكلمته التى نادى بها البوليس فقال :

« أعلم أنكم موظفون لدى أمراء المستعمرات الذين يخدمون مصالح التاج البريطانى . ولكن الوطن الذى يدفع لكم مرتباتكم يدعوكم لنصرته . إن هذا التاج لا يمثلنا . . أنه دخيل علينا . . والإقطاع الذى يحرضكم علينا لا ضمير له .. وحين يبلغ الغاية على ظهوركم سيحرمكم حتى من العلف فاختاروا : الذل . . أو الحرية . . أما أنا فلا أتردد فى أن أختار لكم الحرية .

ــ نشرت فى «روزاليوسف» ١٦ أكتوبر ١٩٥١.
« وكانت حكومة الوفد قد ألغت المعاهدة وبدأ الشعب يتهيأ للكفاح » .

.. ومن أجل مصر ، أدرنا مدافعنا

كان الوعى الحر يمثل « مدفعية ثقيلة » تنهال قذائفها على مساوى الحكم والاقطاع . . وفجأة لمح الرواد بواكير التحام بين حكومتهم ، وقراصنة الأمبراطورية الآفلة فلم يفكروا طويلا . بل صاح بهم من أقصى ضمائرهم الرشيدة صوت يقول :

أيها الرماة . . أديروا مدافعكم . . فاستجابوا له وأداروها . ومع أننا لا نزال فى بداية الطريق ، فإن الذى حدث كان رائعاً . . وحين دقت الساعة السابعة من مساء الأثنين الماضى معلنة وفاة المعاهدة كان فى كل قلب فرح كبير . . وكيف لا تفرح الجماهير المضناة ، وهى التى تحمل فوق كاهلها المبهوظ كل أوزار الاحتلال وأخطاره ؟ . . ولكن حذار أن تضيع منكم الحقيقة فى ضجة المهرجان . . وها نحن أولاء نواجهكم بها فى إخلاص ووضوح .

فأولا ــ كان ينقص المراسيم التى أذيع بها نعى المعاهدة مرسوم أخر ، مكانه بينها مكان الطليعة من الجيش .. مرسوم ينهى ، أو على الأقل يعد بأنهاء الاستعمار الداخلى ويحدد الملكية الزراعية ويرد للشعب أرضه حتى لا يجد الاستعمار ثغرة ينفذ منها إلى كفاحنا الذى سيطول . .

وحتى يؤمن الشعب أنه لم يبق له فى دنياه كلها سوى عدو واحد ، هو الاستعمار ، فلا يدخر من جهده وطاقته شيئاً . . وحتى يقتنع بأنه إنما يقتل من أجل أرضه هو . . لا من أجل أرض تملكها بقية تائهة من آل عثمان . . أما وقد نسيتم ، فإن الفرصة أمامكم كى تفعلوا .

ثانياً — حين ذهبنا نقاتل فى فلسطين قامت وراء ظهورنا عصابة شريرة باعتنا للهزيمة بثمن بخس . . وانتهزت الفرصة لتغتال خصومها ، وكاد النحاس باشا نفسه يكون أحد ضحاياها وقتلاها . . ولسوف نواجه الإنجليز مهما تربص بنا الموت والغدر من وراء . . ولكننا هنا نهيب بهذه العصابة أن تستلهم ضميرها . . فإن لم يكن لها ضمير ، فلتستلهم مصلحتها . . ولتدر هى الأخرى مدافعها صوب الخصم المشترك الذى يريد دمارنا ودمارها . . كما نهيب بالحكومة أن تكون دائمة اليقظة حتى لا تباغت العصابة جيش الخلاص بسوء . .

ثالثاً — صرح النحاس باشا فى خطابه الأخير بأن هدف المفاوضات التى دارت بينه وبين الإنجليز كان « إلغاء المعاهدة والاستعاضة عنها بمعاهدة أخرى تحقق مطالبنا الوطنية . . . » ولقد تحقق الشطر الأول من الهدف على وجه من الوجوه ، وألغيت المعاهدة . . فهل نفهم أن رفعته مستعد للدخول فى مفاوضات أخرى إذا لوح له القراصنة بطعم جديد ؟ ! . . واسوأتاه له إذا فعل . . فلقد شد زناد الثورة إلى أقصاه . . وأية مفاوضة بعد هذا ستودى بجلال العمل وروعة الاقتحام . . ثم كيف تتحقق مطالبنا الوطنية بمعاهدة مع الانجليز وحدهم

أو معهم وشركائهم . مع أن أهم هذه المطالب وأسماها ـ هو ألا يقوم بيننا وبينهم حلف ولا إلاف ؟ ! . .

رابعاً ـــ لتعلم الحكومة جيداً أن فتح هذه الجبهة لا يعنى النكوص عن واجباتها الأخرى ... فالكادر يجب أن ينفذ فوراً . . ومشكلة الأرض يجب أن تحل سريعاً . . واعتمادات الكماليات يجب أن ترصد بلا تردد للكفاح الشاق والمستقبل الفادح . . وسيف النزاهة المطلقة يجب أن يصلت فوق الرقاب . .

هذه شمعة مضاءة بين يدى الثورة . . ويا أيها الكبار هنا ، وهناك . . قد جاء تكم الفرصة لتبدأوا من جديد . . فأديروا مدافعكم مع الشعب ، ولا تنكصوا . .

أما نحن ، فمن أجل مصر أدرنا مدافعنا .. وسنكون كما قال الشاعر :ـ

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   للنائبات على ما قال برهاناً

ـ نشرت فى « روزاليوسف » ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ ـ
« وكانت تحريضا لرئيس الحكومة كى يتأسى بكثير من الذين سبقوه إلى تحرير شعوبهم من قبضة الاستعمار وكى يبذل من ذات نفسه ، ومن إمكانيات منصبه العون الواجب لثورة التحرير التى كانت على الأبواب » .

كان رئيس وزارة .. وكان رئيس عصابة !!

إذا كنا نريد الحرية بلا ضحايا وننتظر أن تأتينا فى موكب من الزهور والبسمات ، فسوف يطول بنا الانتظار .

وإذا خفنا اليوم أن نصطلى بنار الثورة دفاعا عن بلادنا . فسنصطلى غدا بنار الحرب دفاعا عن أعدائنا ! .. وإذا آثرنا الطمأنينة على الحرية فسنفقد الطمأنينة ونفقد الحرية .

ومرة أخرى أعيدوا تلاوة هذه الكلمات ، فإنها حق . وإذا راودنا أمل ضال فى السياسة كوسيلة لإحراز النصر .. أو إذا دب فينا دبيب الخوف من الامبراطورية العريقة فى الإجرام .. فاسمعوا .. اسمعوا صوتا آتياً من وراء القرون .. صوت رجل انجليزى ملأ الدنيا صياحاً بنقائص أمته وحقيقتها . ووقف يجلجل فى مسامع الهيابين . أن بريطانيا ليست إلا خرافة .. ومتى ؟ .. يوم كانت .. ولا شىء معها . تأمر فتطاع . ويضرب أى جندى بريطانى الأرض بعقبه ، فترن أصداؤه فى جوانب الدنيا كأنها أجراس الحرب .. ذلكم الرجل هو « توماس بين » انجليزى غسله الله من أقذار امبراطوريته المتبربرة ، فقام يحذر ثوار أمريكا حين دعاهم الانجليز للتفاهم والمعركة ناشبة ، فقال :

« ساونى عن الانجليز ، فأنا أعرف بهم منكم . . أنهم لن يخرجوا من بلادكم إلا كرها ، ولن يغادروها إلا مقهورين، فلا تجبنوا عن لقائهم.

« ليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن يكون جبانا . فالمسألة كلها موازنة .. أما أن الخير فى الاقتحام ، أو الخير فى الهرب . . وليس العيب عيبكم ، فأنتم توشكون أن تجعلوا أقوى دولة فى العالم تجثو على ركبتيها ولهذا فأنتم ترتعدون .

« لا تحاولوا التفاهم معهم بغير الإهانة والقوة ، فالسياسة البريطانية كالمومس .. لا يمكن أن تسترد طهارتها الأولى أبدا » .

« امضوا بالثورة إلى أقصى مداها . . وثقوا بالنصر » .

« اجعلوا أيديكم تدافع عن أسلحتكم . . وليس العكس ».

« أيها الأخوة . ثقوا بالنصر . . غنوا واستبسلوا . . وأحبوا ، وقاتلوا . . دعوا زوجاتكم وأولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا . . طهروا أرضكم من رجس البغاة . . وفكروا فى النصر وحده » .

وأن من حق حكومتنا أن تتاح لها فرصة الهدوء حتى تمكن للمراسيم والقرارات التى اتخذتها . ولكن لن يكون من الوطنية تركها الشعب يدور فى حلقة مفرغة . بل يجب أن تنشىء بينها وبينه تعاونا ثوريا مسلحا . ماذا تنتظر الحكومة ؟ . . ولماذا لا تدعنا نحمل السلاح ؟ . . ومن سوانا سيلقى الغاصب المتبربر ؟ .. هل هو الجيش ؟ .. أننا نرفض دخول جيشنا فى المعركة ، ونحذركم أن تعرضوا سمعته للتشهير به مرة أخرى .. أننا نريد حرب عصابات لا حرب جيوش . . . وإذا أردتم أن تفلحوا . فاصنعوا مثل كافور . .

لقد وقف فى وجه الحوادث يعاهد أمته الجديدة فقال : « إذا فشلت فى تحرير إيطاليا بالسياسة ، فسأحررها بالثورة » .

وكانت هذه الكلمات القوية الجريئة بمثابة علم خفاق رفعته الرياح الأربع للعالم . كى يذعن لمشيئة لا تقهر .

وتسألونى ماذا صنع كافور ؟ لقد ألغى مظالم المجتمع بجرة قلم . . وجعل مملكة «بيمونت» ملاذا للأحرار والفدائيين الذين كانوا يملأون السجون . . وشجع الجمعيات السرية والثورية وقدم لها المال والسلاح ووضع معها خطة المقاومة ومنهج الثورة . . وأعلن فى وضوح وقوة أنه ليس فقط رئيس وزراء .. بل ورئيس عصابة .. غايتها قتل امبراطور النمسا . . وتخريب النمسا التى تستعمر بلاده .. وتكدير السلام فى أوربا كلها مادامت إيطاليا محرومة من استقلالها ، ووحدتها .

وبهذا الروح الباسل انطلق كافور انطلاق العاصفة . وكان شعاره الذى نقدمه اليوم هدية لحكومتنا هذه العبارة « ليس أضر على أمة ثائرة من الوقوف فى منتصف الطريق » .

وهدية أخرى نقدمها للحكومة ولرفعة رئيسها . فى غزوة أحد لبس الرسول ثياب الحرب وإذ هو يتأهب للرحيل جاءه بعض أصحابه يقولون له : أننا ننزل على رأيك الأول ونرجىء المعركة فأجابهم : لا ، ما كان لنبى لبس ثياب الحرب ان يخلعها حتى يفصل الله بينه وبين أعدائه . أى أنه رفض أن يحجم .. وأن يقف فى منتصف الطريق .

وإذن ، فالثورة .. لا السياسة إذا شئتم أن تفوزوا . وثقوا بالنصر الذى وعده الله كل مؤمن مقدام .

ماذا هناك نخافه ونخشاه ؟ . أنها جيوش مجلوبة . . وخصوم جبناء .

— نشرت فى « روز اليوسف » ٦ نوفبر ١٩٥١ —
« وكانت الهيئات السياسية تجتمع ، وتتشاور لتنظيم كفاح مسلح ضد الإنجليز فى القنال . وكانت الجماهير تتلفت باحثة عن زعيم يقود ثورتها وتستطيع أن تمنحه كل ثقتها » .

فى الليلة الظلماء .. يفتقد البدر !!

كنت أحس أشفاقا حانيا على أولئك الذين يهاجمون سعد زغلول .. وكان هذا الأشفاق يأخذنى رغم أدراكى الكافى للأخطاء السياسية التى تورط فيها سعد .. ذلك لأننى فتحت عينى على الحقيقة الماثلة — وهى أن مصر بسبب ما أصابها من الاستعمار والاقطاع تشكو فقرا فى الرجال ، فليس من صالحها إذن كلما خفق فى سمائها علم أن تنكسه أو تحثوه بالتراب .. ودق ناقوس الثورة .. واستدار الزمان كهيئته يوم كان فى عام « ١٩١٩ » .. وتلفتت مصر تبحث عن الشهاب الذى يقع على الوقود المتحفز ليشتعل ويتأجج .. ولكنها لا تزال فى غرفة الانتظار ..

لا أريد أن أقول أن سعدا خلق ثورتنا الماضية .. ولا أقول أن الرجل المجهول الذى ننتظر بزوغه هو الذى سيخلق ثورتنا التى نعيش فيها .. فالحق أن الثورة هى التى تختار قائدها ورجلها وتضع فوق كاهله ضغط حوادثها ومشاعرها ، فيكون ذلك بمثابة الوحى إليه أنه الرجل المختار لتنفيذ المشيئة المنطلقة الثائرة .. أفلم يجد ضغط الحوادث المزلزلة التى تقع اليوم ببلادنا رجلا ينفعل به ويصير بؤرة تتركز فيها مشاعر الثورة وأحقادها ..؟! أم أن الحوادث نفسها لا تزال من الخفة والتفاهة بحيث لا تستجيش حماس الرجال ؟!..

ولكن كيف يصح هذا ؟.. لقد صرع منا عشرون . . ونام على جراحهم مائة وثلاثون . . ولم يذر الإنجليز حرمة من حرماتنا إلا انتهكوها . أهانوا القضاء . وأهانوا الراية . . وبسطوا أيديهم بالسوء إلى مواطن العفة فى نسائنا بحجة التفتيش على أسلحة . . (١١) واضطروا المصريين للهجرة من بلادهم وديارهم . . تماما كما فعل اليهود بعرب فلسطين . . وأعلنوا ومعهم « دول المحور الغربى » أن الاحتلال المسلح باق فى مصر . شاءت مصر أم أبت .. أفتكون كل هذه الأعاصير عاجزة عن تحريك قائدنا المنتظر .. ورائدنا المرقوب .. أم ماذا ننتظر ؟..

أن الرجل الذى سيضرب الضربة الأولى ، وتكون هذه الضربة باطشة مجنونة .. نعم مجنونة . . هذا الرجل هو الزعيم الذى ننتظره ، والذى ستلقى إليه الثورة بزمامها . .

ما أروع الكلمة التى قالها كارليل : القائد كالشهاب والثوار فى انتظاره كالحطب ، ما أن يسقط عليهم حتى يتأججوا ويلتهبوا . .

فليتقدم الرجل الذى يحس بثقل الحوادث كائنا ما يكون شأنه وقدره فهو . . هو بعينه الزعيم المختار . أن رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة . . هى الخطوة الأولى . . والثورة التى ننتظرها تبدأ بضربة واحدة . . هى الضربة الأولى . فمن كان منكم يملكها فليتقدم وسيكون من ورائه الطوفان .

لا تخافوا . . ولا تنتظروا أمر أحد . فأنها الثورة . والثورة ترتب نفسها . وتتلقى أوامرها منها .

ان مصر تعيش فى ظلام . وحياتها اليوم نسيج من ليلة ظلماء . .
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر .

ـ نشرت فى «روز اليوسف» ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٥١ تحت عنوان «لماذا نحترم روسيا ، ونحتقر الآخرين.؟» وكان الموقف بيننا وبين بريطانيا سيئاً. وكان حلفاؤها يقفون فى صفها ضد حقوقنا . بينما كان « مولوتوف » وزير خارجية الاتحاد السوفييتى يومئذ يعلن فى تصريحاته المتوالية مشروعية جهادنا ، واستعداد روسيا لمعاونتنا إذا طلبناها » .

لماذا أقبلنا على روسيا وأعرضنا عن الآخرين ..؟؟

فى عام «١٨٧٥» طلب من بريطانيا أن تعلن الحرب على تركيا العثمانية. فقال رئيس وزرائها دزرائيلى :

كيف تساهم بريطانيا فى القضاء على دولة لها صالح في بقائها ؟ .. وكيف تتعاون مع جورتشاكوف العدو السافر .. وبسمارك الصديق الذى لا يعتمد عليه ؟ ! ..

وفى عام «١٩٥١» يطلب من مصر والعرب أن يعلنوا الحرب على روسيا .. فنستعير من الانجليزى الداهية نفس عبارته السالفة ، ونقول: كيف نساهم فى القضاء على دولة لنا صالح فى بقائها ؟ .. وكيف نتعاون مع تشرشل العدو السافر .. وترومان المتآمر الذى لا يعتمد عليه ، والذى لا يرجى من سياسته الخير إلا كما يرتجى الشهد من أنياب ثعبان؟!

ولكن هل دعينا حقاً لإعلان الحرب على روسيا ؟ ..

نعم ، فما حلف البحر الأبيض إلا تعبئة ملحدة تهيئها دول افترستها انفعالاتها وأحقادها لتقضى فى حرب عاجلة على روسيا ، وبالتالى على كل حقوق الإنسان .. وقد تسألون : أى صالح لنا فى بقاء روسيا ؟ . فأجيبكم :

سلوا مستر آتلى رئيس وزراء بريطانيا السابق فقد وقف يخطب فى المؤتمر السنوى لنقابات العمال فى سبتمبر عام ١٩٥٠ فقال :

« لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق حين تركنا الهند ، وباكستان ، وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها » .

إذن ، فخوف بريطانيا من الشيوعية ، أو من روسيا بتعبير أصح ، هو الذى مكن هذه الدول من حريتها .. وروسيا ـ باعتراف اتلى هذا ـ هى صرخة العدل التى تجلجل فى روع لصوص الحرية، فيفرون مذعورين.

وانجلترا تعلم، وشركاؤها كذلك يعلمون ، أن الحلف الذى يفرضونه علينا ليس إلا سلبا لحريتنا وتهشيما لاستقلالنا. فهو امتداد لمحاولة الدفاع المشترك . بل هو الدفاع المشترك بعينه على وضع سخى بالشركاء والأسياد!

ولكن قوما أولى تعنت وتزمت .. لكن شعوبا تحرف الكلم عن مواضعه ، وتسىء الظنون حيث ينبغى أن تحسنها .. لكن أمة متشائمة . ترى الكأس ملآى ، وتقول أنها فارغة .. وترى الشمس ساطعة ، فتقول أنها غاربة .. وترى فى حلف البحر الأبيض المترع بالمغانم .. حلفاً أسود مفعما بالمغارم .. لكن كذلك .. وتعالوا نستمع لرأى بريطانيا نفسها فى هذا الحلف الميمون . لقد وقف وزير

خارجيتها فى حكومة العمال الآفلة . . حكومة العمال التى أعلن تشرشل أنه سيسير على سياستها فيما يختص بمصر حذو النعل بالنعل . . أو بعبارة أكثر أدباً حذو تشرشل بآتلى . . (!)

وقف ذلك الوزير ، وكان مستر بيفن ، فقال فى خطابه الذى ألقاه فى مأدبة الغرفة التجارية المصرية البريطانية عام «١٩٤٥» موجهاً الحديث الأعضاء المصريين .

« . . ولكن يجب أن يبقى ما ندعوه بالدفاع المشترك . لأنه لاغنى لأحدنا عن الآخر . . وعلى المصريين أن يطمئنوا فالاستقلال آت لاريب فيه » ! ! .

يا سكان الكرة الأرضية . . أليس هذا اعترافا واضحاً بأن الدفاع المشترك شىء آخر غير الاستقلال ؟ ! ولكن لماذا نسوق هذا الحديث ؟

نعم . لماذا ؟ .

أننا نسوقه من أجل أولئك الذين لا يزالون ينتظرون من هجير الغرب غيثاً . . ويخافون أن يبرموا مع روسيا موثق إخاء وسلام .

ونسوقه لبريطانيا التى إذا خلت إلى شياطينها وشركائها حرضتهم علينا بحجة أننا أمة شيوعيةهوجاء فمنحق هؤلاء جميعاً أنيسمعوا رأينا فى صراحة ، وأن يعرفوا :

لماذا نحترم روسيا . . ونحتقرهم

لماذا نحبها . . ونمقتهم ؟

لماذا نقبل عليها ونعرض عنهم ؟ .

نعم من حقهم علينا ذلك ، فليسمعوا إذا كان الصم يسمعون !

إننا نحب روسيا ، ونبغضكم ، لأنها تريد حياتنا . . وتريدون موتنا !.. لأنها تدعو للحب ..وتدعون للحرب!.. لأنها تبحث للانسانية عن زبد تأكله .. وتبحثون لها عن مدافع تنهش لحمها ، وتدك سلامها !..

نحبها لأنها تحترم الحق . . ونكرهكم لأنكم تحتقرون الحق !

وأخيراً ، فنحن نحبها لأن مصلحتنا تقتضى حبها . . . ونهملكم لأن مصلحتنا تقتضى إهمالكم . .

نحترمها لأنها لم تقم فى بلادنا بجزرة دنشواى ، ولا مذبحة ١١ يوليو ولم يقتل جنودها « البواسل » الشهيدة العزلاء . . أم صابر ! !

نحبها لأنها تحترم محبيها .. ونحتقركم لأنكم تحترمون الذين يحتقرونكم .

أيها « القديسون الأبرار » هل نسيتم ؟ . .

أنه فى الساعة التى التى كانت تصلصل فيها الكؤوس الذهبية التى قدمنا لكم فيها أنخاب النصر بنادى العلمين . . كانت فرقعة السياط تدوى فى أرجاء فلسطين وتتهاوى من أيدى الصهيونيين على أجساد ضباطكم العراة ! . . ومع هذا . فقد خذلتمونا . . ونصرتم الجلادين ! . . لا بأس . . ولنكرمكم إجلالا لأمريكا ، فقديما قيل : من أجل عين ، ألف عين تكرم .. ولكن من يشفع لأمريكا ؟ . فهى الأخرى وافرة الوزر مبهوظة بالضلال .

لقد أمسك الأرق بجفون « ترومان » ذات ليلة . . ولم تكتحل عيناه بنوم حتى بشره الأثير بميلاد إسرائيل . . ومنذ انتهت حرب

فلسطين إلى يوم الناس هذا والسيد المهذب الجنتلمان ينام ملء جفونه وملء ضميره الشجاع أيضا على الأنغام الجنائزية الحزينة التى نظمتها شهقات اللاجئات ، وأنين اللاجئين ! . .

ورغم ذلك كله فمطلوب منّا أن نحبكم..ونحترمكم.ونكون «ألواحاً» فى سفينة الحرب التى ستغرق بكم إن شاء الله . .

ولكن اسمعوا . .

أننا على استعداد لأن نرصد للموت فى سبيل حريتنا عشرة ملايين منا . . يذهبون ، ولا يعودون . ولسنا مستعدين لأن نقدم للموت فى سبيلكم أنتم نطفة لزجة لم تتشكل بعد فى الأرحام .

واسمعوا أيضاً .

أن عظام مصرى واحد . . أو عربى واحد ، لتساوى كل ما تطلع عليه الشمس من أرضكم ودنياكم . . من مدنكم ومدنيتكم .

فتربصوا . . أنا معكم متربصون . وستخسرون كثيرا . . أما نحن فليس لدينا ما نخسره ! .

وحين تفنى شعاعات الأمل ، وتدق ساعة اليأس معلنة غروب العدل وراء قاذفاتكم التى تسد الأفق . . عندئذ . سنهز أعمدة المعبد الحبيب غير آسفين ليخر علينا وعليكم . . تاركين فى أرجاء هذا العالم الموحش أصداء كلمتنا الأخيرة : علينا . وعلى الأعداء . . يارب .

ـ نشرت فى مجلة « اللواء الجديد » عام ١٩٥١ ـ

لا تخف . . إنك انت الأعلى ! !

فى حياة كل شعب ينابيع باطنة تمـــده بأسباب الإخفاق ، وأسباب الظفر . .

وفى العقل الباطن لكل أمة تستقر رواسب تجاربها العديدة . . وتتراكم ذكريات فشلها ، وذكريات نجاحها .

ومستقبلها منوط دائما ، أو غالبا بالقدر الذى تستطيع به أن تمحو ذكريات الإخفاق من ذاكرتها . . وتبعث ذكريات الفوز والأمل . . فبهذا القدر وحده يمكنها أن تمخر الحوادث . . وتشق لنفسها وسط عبابها طريقاً .

ومن هنا كانت حاجة الجماهير المتحفزة للثقة بنفسها ، والإيمان بماضيها قبل البدء فى طريق الكفاح ، حتى إذا انقدحت أمام وعيها اللحظة الحاسمة ، والفرصة الملائمة تبعتها بكل عقلها وقلبها وطاقتها .

وفى تاريخ البشرية لوحات كثيرة تصور هذا المعنى فى براعة وحذق . . وهذه إحداها :

عندما دعى لويس السادس عشر « مجلس طبقات الأمة » للاجتماع ليعاون الحكومة فى تقرير ضرائب جديدة ـ وكان هذا المجلس معطلا منذ عهد « ريشيليو » اغتنم الوطنيون هذه الفرصة وقرروا وضع دستور

جديد للبلاد يطامن من كبرياء الملك لويس وطيشه . . وأقسموا يمين « ملعب التنس » ـ هنالك أقنعت الحاشية مليكها أن يواجه المجلس فى حزم رادع . . فذهب إلى « المجلس الوطنى » كما أسماه الأعضاء أخيراً . . واستجمع لويس كل شجاعته التى أفاءتها عليه مركبات نقصه . . ثم أعلن بطلان جميع قرارات المجلس التى اتخذها بشأن الدستور ، وختم كلمته السامية بهذه العبارة المغرورة :

« إذا لم تنفذوا أمرى فسأعمل وحدى . . وسأعتبر نفسى مندوب الأمة الفرد المطلق » .

واحتوى المجتمعين صمت عميق . . كان من الممكن أن يطول حيث ينتهى إلى إذعان يضيف به الشعب إلى رصيده من الإخفاق جديداً . . بيد أن رجلا تركز فيه وعى أمته وحماسها وإيمانها أدرك أنه حيال اللحظة الحاسمة فى تاريخ بلاده ، فأطلق صيحته كالأعصار المدمر قائلا :

« ما هذه الدكتاتورية الشائنة ؟ . أليس هذا الذى يصدر أوامره إليكم ـ هو الذى يجب أن يتلقى الأوامر منكم . . ؟ »

وإذ هو يجلجل ويهدر دخل كبير أمناء الملك ليعلن انفضاض الجمع : فلفحه ميرابو بصرخة أخرى :

« أبلغ سيدك أننا اجتمعنا هنا بإرادة الشعب . . ولن نخرج إلا على أسنة الحراب . . »

وبهذه الكلمات ، وفى لحظات كأنها ومض البرق ، أو لمح البصر ـ محا « ميرابو » من ذاكرة أمته كل ذكريات الفشل والذل والخوف . .

ونهض بها منتصبة باسقة أمام الملك المزيل . . ودق ناقوس الخلاص . .
وهيأ فرنسا كلها لمعركة الظفر .

ولو أن كلمات « لويس » هذا وجدت آذاناً مفتوحة . . وعزمات
مجفلة لتأخر خلاص فرنسا أمداً بعيداً . . وظلت سلالة لويس تتوالد
كالذباب من لويس السادس عشر إلى السادس والعشرين أو الثلاثين . . !

ألم يكن فى تاريخ فرنسا من المحاولات التحريرية التى باءت بالفشل
الموصول ما يوحى فى تلك الساعة بالخوف والتردد . . ؟

نعم كان . . بيد أنه قد كان أيضا فى تاريخها من المحاولات الناجحة
ما يوحى بالوثوب والاقتحام . . !

وكذلك كل أمة . . وكل شعب . . فيه هذا الخليط من المشاهد
والذكريات وحسبه لكى ينتفع بخيرها ، ويتقى شرها ـ أن يقدم على
مغامرة ـ أى مغامرة ـ فتعود إليه ثقته بنفسه ويرى أن الأشباح الضخمة
التى ترهبه وترعبه ليست إلا ظلالا وهنانة . . وأن فى الطغاة دائما
من الآفات النفسية . . والتناقضات الداخلية ما يعمل دائبا على نخر
نظامهم . ويهيئهم للفناء القريب . .

نعم ـ مغامرة واحدة تبين للشعب ـ أى شعب ـ إنه كان يمثل
مع مستعمريه وقاهريه دور الجن مع سليمان ـ مع الاحتفاظ بما لسليمان
عليه السلام من كرامة وفضل ـ فقد ظلوا يعملون فى نحت الجبال وصنع
التماثيل . . وكلما اختلسوا النظر إلى سليمان ووجدوه قائما يرمقهم
بنظرات حداد . . انكبوا على الضنى والشقاء . . مع أن سليمان آنئذ

كان ميتاً . . ولم يكن له من مظاهر الحياة إلا وقفته المتكئة على عصاه . .
فلما نخرت العصا « دابة الأرض » وقضمتها خر سليمان وهوى . . وهنا
أدرك الجن كم كانوا واهمين . . وعلموا لو لامسوا من قبل الشبح
الذى كان يبدو رابطا حياً ـ ما لبثوا هذا الأمد فى العذاب المهين . .

ولكن لماذا نعرض هذه الخاطرات . . ؟

نعرضها ـ لتعلم جماهيرنا ، ولتعلم الطليعة اليقظة منا ـ إنها تعانى
من سوء الظن بنفسها وبقدرتها عناء وبيلا . . وأن تفزعها من ملاقات
المستعمر الغاصب . . والمستبد الناهب ليس له ما يبرره مهما تكن قوة
هذا المستبد وجبروته وليس علينا إلا أن نفكر لهؤلاء المستبدين
فى مغامرة . . وأن ننتفع باللحظة الحاسمة إلى أبعد مدى وأن نؤمن بأننا
الأعلون فى بلادنا وفوق أرضنا .

أيها الشعب ـ لا تخف ـ وإذا غلبك الخوف ، فامض فى طريقك
وأنت خائف .

ـ نشرت فى مجلة « الشعب الجديد » عام ١٩٥٢ ـ

أفرغتم من الاحتفال بمولد محمد؟ . . . إذن فاسمعوا ! !

فى طوفان الحوادث ، وضجة المعركة . وجد المصريون وقتاً يحتفلون فيه بمولد رسول عظيم . .

ومضى الاحتفال كما يمضى كل عام . . واحتفلت الهيئات ، ودبجت المقالات ، وألقيت الكلمات . .

حتى الأطفال ... احتفوا واحتفلوا ، وانصرفوا إلى الدمى الطريفة التى لم يكن فيها طبعاً دمية واحدة تعبر عن مأساة من مآسى القتال ، أو عن بطولة من بطولاته . .

وشهد الناس جميعاً مظاهر العيد أو بعضها .

ترى هل شهدها صاحب الذكرى أو رضى عنها . . ؟

إن رسول الله لم يكن معكم أيها المحتفلون ، وما ينبغى له أن يكون . . لقد كان فى مكان آخر . . هناك . . عند الذين ماتوا . . والذين ينتظرون الموت . . .

نعم . إن روح محمد مرت من هنا . . (!)

وعندما كنا نخطب ، ونصخب ، ونتلمظ بالحلوى التى تفتح الشهيات ، كان محمد هناك ، مع أم صابر ، وزملائها . . يسكب على ثراهم

المتلظى بنار المقت . . والمستعر بلهب الحقد ، رذاذاً طيباً من دموعه الحانية . ويسألهم :

— أأنتم قتلى الإنجليز ؟ !

فيجيبون :

— لا . . بل نحن قتلى أمة أسلمتنا . . وحكومة نامت عن ثأرنا . . .
فيعتصر الرسول مآقيه ، ويرفع وجهه ويديه إلى السماء ويدمدم : — اللهم العن أمة أسلمتهم . . والعن حكومة نامت عن ثارهم . .

ثم يمضى . . يمضى محمد فى طريق الأبدية . مخلفاً وراء ظهره عشرين مليون دمية تتدحرج على أرض مهرجان باهت ذليل .

وتاركا للحيارى المترددين درساً بليغاً ، فياليتهم يسمعون .

إن اليوم الذى أرسى فيه محمد قواعد دعوته ، ووقع وثيقة انتصاره ، لم يكن يوم الهجرة حيث نجا برسالته من فناء محقق . . ولا يوم « غزوة بدر » حيث ألقى أعداءه فى القليب ، وأهال عليهم تراب الهزيمة والعار . . ولا يوم جاءته البعوث تضع بين يديه ولاء الملوك ، وهدايا الرؤساء . . إنما كان قبل ذلك بكثير . . يوم كان يغدو وحيداً ، ويروح فريداً . . . والمستقبل المجهول يبدو متجهماً فى نهاية طريق موحشة تعج بالسباع المتربصة ، والكلاب اللاهثة . .

يومئذ والأمل فى الظفر ، أدنى ظفر . . كالأمل فى بناء قصر هائل من أشعة القمر . . !

يومئذ ، ومحمد أعزل من كل شىء . . من المال ، والسلاح ، والأنصار . .

يومئذ ، والساعات تمر به حزينة مقهورة استطاع أن يهمس فى أذن الزمن : أن أفسح لى بين أيامك طريقاً ، فقد قررت أن أسير.

هذا هو محمد .. ليس رسولا فحسب ، ولكنه رمز عظيم . .

امتحنته الأحداث امتحاناً رهيباً . حين وسط المشركون عمه أبا طالب بينهم و بينه فجلس إليه يقول :

— يا ابن أخى . إن قريشاً تشكو من تسفيهك أحلامهم .. وشتمك آلهتهم . . وهم يعرضون عليك المال حتى تكون أغناهم . . والجاه حتى تكون أشرفهم .. والملك حتى تكون سيدهم .. وأنا أنصحك بالكف عنهم حتى لا يصيبنا ويصيبك منهم سوء..وانفرجت شفتا محمد ، وتألقت دمعاته على وجنتيه كأنها حب الجمان ، وقال :

— ياعم . لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه ..

قالها عليه السلام ، وهو فى مثل هدوء المحيط وقوته . . فالجداول الصغيرة هى التى تثرثر بموجاتها الهزيلة الوهنانة . . أما المحيط ، فيبتلع الأعاصير ، ويطوى العواصف ثم يمضى فى جلاله المهيب لا تكاد تسمع له همساً . . !

وازدهى وجه أبى طالب وراء قناع من السكون . وتحرك رأسه إلى الأمام رويداً رويدا .. كمن أصابه دوار البحر.. أو دوار المحيط .. واقترب من الكلمات التى كان نسيج صوتها لا يزال ماثلا يملأ الزمان والمكان . . ونظر أبو طالب من خلالها ، فرأى المستقبل وصالحه . . ولما أفاق وجد يده مشدودة على يد محمد يقول له :

ـــ يا ابن أخى ، امض لما أمرك الله . ولن أسلمك إليهم أبداً . .

إذا استطعتم أن تتصوروا الظروف التى قال فيها رسول الله كلمته المضيئة ، استطعتم أن تتصوروا مفهومها وروعتها .

واذكروا ـ قبل أن تنسوا ـ أنه ما من نبى ولا مصلح ، ولا قائد سار عبر التاريخ إلا كان له مثل هذا الشعار .

وهذا هو الدرس الذى يلقيه اليوم محمد رسول الله .

١ ـــ صمموا على ما تريدون .

٢ ـــ سيروا بتصميمكم هذا على صراط الفضيلة والواجب .

وهذا هو الذى صنعه رائد البشرية العظيم .. نبذ أطماعه ونذر نفسه لعقيدته . .

لم يتخذ الجهاد تجارة ولالهوا ..ولم يتصور ساعة من نهار أن يستعين على الكفاح بالترف . . ولا أن ينشد النصر بالراحة . .

ولو كنتم هناك ، وهو يستقبل أمر السماء « يا أيها المدثر . قم فأنذر » لرأيتم مشهداً عجباً . . حيث يلف الليل سكان مكة فى هزيعه الأخير . ومحمد وحده يقظان . . حتى إذا دعته زوجه خديجة للنوم قال :

ـــ انتهى عهد النوم يا خديجة . .

منطق رجل عرف واجبه . . وتجرد للالتزامات الجديدة التى فرضتها عقيدته . .

ترى لو كان محمد بوادى ذى زرع ، وكان يملك فى هذا الوادى عشرة آلاف فدان . . أو مائة ألف وعشرا . . أكانت السماء تختاره لرسالة عنوانها ـ « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟

كلا ، فالسماء ليست عابثة يا أصدقائى . . لذلك اختارت للشعب اليتيم يتيما مثله .. ووضع الله عينه على الرجل الذى يسهر ليله لأن الناس يسهرون . ويشد على بطنه حجرا ، لأن الناس يصنعون .

الرجل الذى يبحث عنه أصحابه فى غزوة حنين فإذا هو هناك على ربوة الفداء . . وسهام الأعداء تنوشه من كل جانب . وكلما تاهت عنه السهام هداها إلى مكانه ونفسه بصيحته الجريئة المتحدية :

أنا النبى لا كذب .

أنا ابن عبد المطلب .

فيا أيها الحكام الذين تديرون معركة الحرية من صالونات القصور .

ويا أيها الزعماء الذين تدعون الشعب الموت ، وتدخرون أنفسكم لتأليف الوزارات ، وتوزيع الغنائم الطيبات .

ويا أيتها الجماهير التى تخاف وعورة الطريق .

إن محمداً تجربة ناجحة من تجارب النضال النبيل . .

فخذوا عنه الدرس ، وامضوا . . وثقوا بالنصر ، فإن لله عباداً إذا أرادوا . . أراد .

ـ نشرت فى مجلة « مصر الفتاة » عام ١٩٥٢ ـ

الأرض الطيبة

ذات مساء أذاعتنا أذاعتنا المصرية بهذا العنوان صورة صوتية لتوزيع جزء من أرض « كفر سعد » المستصلحة على بعض العائلات المحرومة ، وبدا من خلال هذه الصورة أن حفل التوزيع كان مهرجانا حافلا .. بحت فيه حناجر المعدمين ، وانتعشت آمالهم الذاوية ، وشهدوا لأنفسهم ميلادا جديدا !

ولو علمت الغيب لاخترت الواقع .. ولم ألق سمعى لهذا التسجيل المذاع ، فلقد حسبتنى سأحظى بلون من اللهو المسلى ، فإذا بى تستثيرنى من الحفل كل خلجة .. وكل كلمة .. وتأتمر بأعصابى مشاهده .. وتثير ذكرياتى شوارده .. اثنا عشر ألفا من الأفدنة .. كانت برارى ومستنقعات .. استصلحت ، وألقى بها إلى جماعة البائسين الذين استقبلوها بأفئدة كادت تنخلع من الفرحة .. وتتمزق من الصياح .. وحتى الصبية الصغار نظموا موكبا .. ومضى الموكب الصغير القنوع يشغو ثغاء كأنه جميل .. فرحا بالأرض الطيبة .. مرحبا بهذه الآلاف من الأفدنة التى كانت مستنقعا كبيرا يؤرقهم بذئابه وذبابه .

ولكن أروع مشاهد هذا الاحتفال المشهود ـ كان مفاجأة لم تخطر على بال .. مفاجأة دبرها القدر الحكيم من وراء .. فبعد أن انتهى نائب الملك من تسليم وثائق الامتلاك لذويها ، وغادر البلد مشيعا

بالحفاوة أقام الفلاحون ندوة ساهرة غناهم فيها على « الارغول » واحد منهم ، وكان مطلع الموال الذى غناه :

يارب تشفى عيون الناس وعيونى   عنشان افتح واشوف الخلق بعيونى

أى غريزة ملهمة داعية ربطت بين المناسبة وهذا المقطع الفاتن المثير . . ؟

وأى وحى ذكى أرسل هذه الكلمات فى أوانها على لسان أمى غرير ..؟

نعم . . فنحن أحوج ما نكون لأعيننا حين يخدعها السراب الكاذب ، ويضللها الضوء الخاطف الخالب .

نحن أحوج ما نكون لأبصارنا مفتحة حين يسلط عليها ضوء « بطارية » يريد أن يعشيها فلا ترى حولها ، ولا أمامها شيئا .

وهذا هو مثل الاقطاع معنا . فهو يستصلح البرك والمستنقعات ثم يقدمها فى دل ومَن وعجرفة لبضع عشرات من عشرين مليونا استوطنهم الجوع والحرمان . . !

ولكن عبثا يحاول .. وهذه الأثنا عشر ألفا لن تعمى أبصارنا عن الملايين الثلاثة من الأفدنة التى تملكها حثيات من الأشراف العاطلين ، ومن أبناء الأكرمين . . الذين ليسوا بأكرمين . . !

هذه الملايين . .

هذه الأرض التى شقى فيها آباؤنا وكان عزاؤهم أنها ستصير لأحفادهم مثابة ورزقا . . وإذا شذاذ الآفاق من الأجانب . . والشركات . . يسقطون عليها كالحدأ ويتخطفونها ، ثم يحتلونها فى وحشية وصلف . .

بأى حق سلبوها . . ؟

وعن أى أب مصرى أصيل تلقوها وورثوها . . ؟

أما نحن ، فنشم فيها عرق آبائنا ، وأريج أمهاتنا . وتسمع ضربات الفأس موقعة على زفرات أجدادنا . .

ونحن لا نحبها لأنها ـ فقط ـ مرعانا ومأوانا . . بل قبل ذلك ، لأنها قصتنا . . لأنها تاريخنا . . لأنها الوثيقة الخالدة التى تصل نسبنا الكريم بكل ذرة من ثراها . . وكل بقعة فى قراها . .

وإذا كان قد أتى على الشعب حين من الدهر ، وهو محروم من أرضه يغنى فى مرارة وغيظ : ـ

أحرام على بلابله الدّ وح حلال للطير من كل جنس

فقد آن أن تصحح الأوضاع على صورة واسعة مشروعة وإلا فستبقى محاولة ـ كفر سعد ـ خرافة وشعوذة وحمقا . . وسنظل فى هذه الحياة بصقة تعافها الحياة . .

وإذا كان فى الحاكمين من يحترم مصر ويغار على سمعتها ، فليقرأ رأى العالمين . أعنى فى نظمها الفاسدة الفاحشة .

هذه كاتبة معتدلة اللهجة هى « دورين وورثر » تتحدث عن الاقطاع المصرى فى كتابها : (الأرض والفقر فى الشرق الأوسط) فتقول :

. . وهناك يستغل الإنسان استغلالا فظيعا . فكثيرا ما ترى فرقا مؤلفة من صغار الفتيات اللائى لا تزيد أعمارهن عن الخامسة يستخدمن فى التقاط القطن ، ومن ورائهن السياط . . ولا تحاول السلطات الحكومية أن تقى الفلاحين هذا الاستغلال الفظيع .

وينام الفلاحون مع الماشية فى أكواخ . ودخل الفلاح المصرى أقل من دخل أى فرد فى أقطار الدنيا . والذين يملكون أكثر من خمسين فدانا إلى مالا حصر له ـ اثنا عشر ألفا من المالكين. . .»

شىء مخجل . . وصورة تثير التقزز والاشمئزاز . .

فهذه سمعه ـ الاقطاع المصرى ـ تزكم الأنوف .. وهاهو ذا له فى كل كتاب عالمى يتحدث عن الظلم والخسة والوحشية مكان محفوظ وملحوظ

إن اقراص الاسبيرين التى توزع فى «كفر سعد» ليست الدواء ولا الشفاء ولن تغنى شيئا عن الحقيقة الخالدة .

هذه الحقيقة هى أننا فى وطننا محرومون من الوطن.. نلهث من الظمأ . والنيل يجرى تحت أقدامنا . ونتضور من الجوع . . والرزق كله صنع أيماننا . . ولولا أنكم فى حاجة إلينا لنخدمكم ، ونغذى بذخكم ما تركتمونا نحيا . . .

ولكن لا بأس . . فوراء كل ليل صباح . .

والشعب الذى تقف من ورائه عشرات القرون المترعة بالهزيمة والظفر . . والتقهقر والجرأة . . والألم والأمل . . عشرات القرون ومئاتها تربطه بأرضه الطيبة . .

هذا الشعب الذى تنكرونه وتحقرونه . سيقرر مصير الأرض التى طال حولها النزاع . . وتسألون متى هو . ؟

رويدكم . . . سيكون قريبا .

ـ نشرت فى جريدة الجمهورية ٧ ديسمبر سنة ١٩٥٣ ـ

لا خطـــوة إلى الوراء . .

> يذاد أناس من أمتى عن الحوض يوم القيامة ، فأنهض لأشفع لهم ، فيقول الله لى : لا تفعل ، إنهم كانوا يعدون بعدك القهقرى على أعقابهم ، فأقول : سحقا . سحقا .
>
> « محمد عليه السلام »

الحكمه الجليلة التى ضمنتها البشرية تجاربها وذكاءها هى ذى : لا خطوة إلى الوراء .

وما من رائد عظيم سار عبر هذا الوجود ، وخفق على سارية الحياة كأنه راية . .

ولا من عمل جليل تم فى هذه الدنيا ، وزاد ثراءنا الإنسانى فى المادة والروح إلا وكان من ورائهما حوافز يزجيها هذا الشعار . .

والأديان والرسل أصدق شاهد يزكى ما نقول ، فلقد فاز المرسلون فى المعارك التى احتدمت بينهم وبين خصومهم . لأنهم كانوا مع المستقبل بينما شد خصومهم إلى الوراء بسلاسل من حرص مشئوم على تقاليد عفنة ، وتعصب ذميم لجهالات راسخة ، وتطلع مسعور إلى مغانم مرجوة . .

وكان سر عظمة موسى ولباب رسالته تقويض الرجعية السياسية المتمثلة فى فرعون ، والرجعية الاقتصادية المتمثلة فى قارون . . وكان مبعوث المستقبل إلى المستضعفين فى الأرض ليجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

وكانت رسالة عيسى وثبة بالناس إلى أمام . وتصفية للرجعية الدينية التى جعلت دين الله تجارة ولهواً .

أما محمد ، فها أنتم أولاء ترون مبلغ مقته للتقهقر، وتسمعون فى حديثه الكريم الذى صدرنا به هذا المقال صلصلة العداوة التى يرصدها الله سبحانه للذين يعودون القهقرى ولا ينطلقون إلى أمام .

إن الرسالات ، والدعوات والثورات ـ كلها سواء فى أنها إذا لم تستشرف المستقبل تفقد قيمتها ، بل تفقد ذاتها . والأمم فى مواقفها الفاصلة ، وساعاتها الحاسمة لا يعصمها من البوار ، ولا يهديها إلى مطالع المستقبل سوى هذا الشعار المضىء : لا خطوة إلى الوراء . .

عندما كان « وشنطن » يقاتل الإنجليز على حرية بلاده ، أراد قائد بريطانى خبيث أن يعرقل زحفه فى إحدى المعارك ، ففرش الأرض أمامه بأعلام الثورة ، وقال له : إذا واصلت زحفك فستطأ علم ثورتك وبلادك بحوافر الخيل ، ونعال الجيش . . .

فأجابه وشنطن : إنى وبلادى على موعد مع المستقبل . ولو أن رأسى اعترض طريقى ، فسأدوس رأسى وأمضى إلى غايتى بغير رأس . .

لا جرم أن هذا الروح الشامخ ، وذلك التصميم على ملاقاة المستقبل . هما اللذان أثابا وشنطن وبلاده فتحاً قريبا ، وفوزاً جليلا .

وعندما دمدمت فرق العاصفة الألمانية على ستالنجراد ، وجثت حامية المدينة تحت الآلام والأنقاض ، وجلس القائد الألمانى ينفث من بين شفتيه المتكبرتين دخان تبغه ، ويعد الصيغة التى سيذيع بها على الملأ نعى البلد المغلوب ـ أصدرت القيادة الروسية أمرها اليومى الجديد . . وكان ذاك الأمر سطراً واحداً لا يزيد :

« بأمر الرفيق ستالين . لا خطوة إلى الوراء » .

وسرت هذه العبارة المتوهجة بين الناس كقهقهة الرعد . . فإذا هم من أكفان الهزيمة ينسلون . وتحول الذين كانوا على شفا الموت إلى عمالقة . . وأذاعت ستالنجراد نعى ألمانيا كلها إلى الدنيا ، وإلى المستقبل الذى آمنت به ، فأثابها وأغدق عليها فى الثواب .

وبعد ، فاعلموا أن فى كل أمة ورائيين يلوذون بالوراء ، ويأرزون إلى الأمس .. نهجهم كما وصفهم القرآن « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

وتصوروا لو أن محمد بن عبدالله ألقى لهؤلاء سمعه ، أى عاقبة كانت ستحدث وأى مصير . . ؟

كان محمد عليه السلام سيفنى فى خضم جهالاتهم ، ويذوب . . وكان الإسلام سيختنق كفقعة ابتلعها الموج وتلاشت على جدار بلعومه العريض، وكان كسرى سيظل كسرى وقيصر فى مكانه قيصرا ، والكادحون هناك فى أقصى الأرض يلهثون تحت ضربات السياط لا يجدون الملجأ ولا النصير .

ولكن محمداً واجه الرجعية بكل قواه . وأعطى المستقبل وعداً شريفاً بأن يولى وجهه شطره . . وبر بوعده ، فانتصر وبقى دينه خالداً على الزمان .

أترضون محمداً قدوة وإماما . . ؟

إذن ، فلا خطوة إلى الوراء . إن كنتم صادقين .

واتلوا حديثه مرة أخرى لتروا ما جزاء الذين يرجعون القهقرى ولا ينطلقون إلى الأمام . .

إننا اليوم نعيش فى ثورة ، أو فى حركة تحولت إلى ثورة فكيف نحقق الآمال المعقودة عليها . . ؟

وكيف ننتفع بكل إمكانياتها فى رصف طريقنا إلى المستقبل . . ؟

وبكلمة واحدة :

كيف نربح الثورة ؟ . .

إن ما يجب عمله لكى نربح ثورتنا كثير جد كثير . وسنحاول فى مقالات تالية أن نضع العيون على بعض هذا الكثير . ودعونا الآن نبدأ بما لا بد من البدء به . فما هو . . ؟

إنه التعاون الوثيق مع حركة التاريخ . .

إنه المسايرة الجريئة لقافلة التطور . .

إنه تركيز السمع والبصر والفؤاد على المستقبل . .

وإن الويل أعظم الويل للذين يقفون فى مكانهم لا يتحركون . أما الذين يضيفون إلى جريمة الجمود ، جريمة الزحف إلى وراء ، فليرحمهم الله . . ولكن لا ، فقد أنبأنا الرسول أن ليس لهم فى رحمة الله الواسعة مكان . ! !

لا خطوة إلى الوراء . . هذا هو نداء النجدة لكل أمة تحيط بها المخاوف والأخطار . وعلى الثورة أن تحترم تبعاتها إزاء الظروف التى كونتها ، والتى لا تزال تدفعها وتحميها . ولعل الثورة تسأل : ما هذه الظروف . . ؟

ونجيب . . إنها الحاجة الأكيدة إلى حياة اكثر جدة وتحرراً وانطلاقا .

لقد نجحت الثورة لأنها أحسنت الانقضاض على القديم العفن فى هذه البلاد . وسيزداد حظها من النجاح كلما قوى هجومها على معاقل البلى وحصون التأخر والانحطاط .

أجل . لقد نجحت لأنها كانت معول التطور التاريخى لشعب طال تربصه وبلاؤه .. هوى به على قوى الرجعية والشر . . فإذا انثلم هذا المعول . وأدركه العطف والارتجاف ، فسوف يلقى به التطور بعيداً ، ويبحث عن معول آخر حاد ومشحوذ يتم به رسالته ، ويبلغ أمره الغالب ومشيئته النافذة ـ ذلك أن التطور لا يعجزه شىء . ولطالما شبهت الذين يحاولون وقفه بأبله يبسط يده إلى الشمس ليقفها عن المسير.. أترونه قادراً عليها ؟ ! . .

فلتدرك الثورة هذا جيداً ، ولتحذر أن تساوم الرجعية على مستقبل أمتنا التى طال شوقها إلى غدها المرقوب . .

وحتى لا يرجف القراء ، كلهم أو بعضهم فيما أعنيه بالرجعية أكشف لهم عن قصدى فى وضوح .

إننى أعنى بالرجعية ـ الفهم المغلوط لحقائق الأشياء ، والإدراك الفج لقوانين الحياة ، والمحاولات اليائسة لعرقلة التطور ، والمخاوف الباطلة من كل جديد . . فحيث توجد هذه النقائص توجد الرجعية التى أعنيها والتى أحذر من الركون إليها والاعتماد عليها .

ستجد الثورة أناساً يطالبونها ، بزج المرأة فى ظلمات بيتها ، وإلزامها نظام الحريم .. (!) .

وستجد ناساً ، ونحن نسميهم بالناس من باب التجوز والمبالغة ،

يزينون لها الحكم المطلق ، ويضربون لها الأمثال بحيوانات منقرضة على شاكلة الدوتشى ، والفوهرر ، وجنكيز خان .

وستجد آخرين يدعونها إلى سوق الشعب بالهراوة والسوط إلى مزيد من التدين ، ومزيد من التقوى .

وستجد صنفاً آخر يحبذ لها المروق من نطاق العالم المتمدين .

ألا فلتذكر الثورة أنها تلحد فى آيات الله ، وفى طبائع الأشياء ، وفى حق الشعب الحادا لا يغفر إذا عادت بنا أنملة واحدة إلى الوراء .

ولتسأل الثورة أولئك الغيورين جدا على دين الله ، أين كانوا يوم كان السيد فاروق يفترع العذارى ، ويسرق الشعب ، ويتجشأ العار ، ويحيل بنات الناس إلى مومسات ؟ .

إذا كانو صادقين فى غيرتهم على الدين ، فليكفهم أن الله رفع عنهم ذلك الأصر الوخيم ، وليمكنوا أمتهم وثورتهم من أن ينطلقا إلى مستويات رفيعة من المعرفة والخير والصلاح .

ولقد أخرجنا رسول الله من الجاهلية ، ولن نعود إليها أبدا ..

ألا وإن كل انتكاس إلى الوراء ، وتخلف عن موكب الحياة ، جاهلية وبيلة .

فمن أراد الجاهلية ، فليذهب إليها وحده .

أما مصر فعلى موعد مع المستقبل ، وإنها لمصممة على إنجاز وعدها ..

وأقسم بكل شيء مقدس . لو أمطرت السماء رجعيين وأنبتت الأرض رجعيين فلن ينالوا أبدا من تصميمها ولن يأخذوا زمامها من يدها ..

ولسوف تمضى مصر مستبسلة شامخة . والهلاك لمن يتخلف .

ـ نشرت في جريدة الجمهورية، ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٣ ـ

هنا . . حتى يقوم البناء

> ليست المشكلة ، كيف أوجه ضربتى ، فسوف أوجهها على أية حال . . ولكن المشكلة هى : متى أفعل ذلك . ؟
> ولسوف اختار هذا الميقات وحدى . .
> « كافور »

هذه الخطب الثائرة التى تسوق مشاعرنا إلى القتال سوقا عنيفاً يجب أن تصمت .

وهذه الأيدى التى تلوح لنا نحو القتال، يجب أن تستدير نحو شىء آخر

وهذه التعبئة النفسية العامة التى توشك أن تستنفد طاقتنا وحيويتنا يجب أن تستأنى وتتريث .

ومعذرة إذا كان القلم سيقنى إلى استعمال كلمة « يجب » فالحق فى أريد أن أقول : أرى .

أجل : أرى أن ينتهى كل هذا .

ولقد يبدو فى هذا الكلام شىء من الغرابة . ولكن أليس أكثر غرابة وعجباً ألا ننتفع بالتجارب التى تسمع الصم ، وتبعث الموتى ، وتفجر الحجر الصلد ذكاء ووعيا ؟!.

أن الانجليز يودون ولو بجدع الأنف أن نلتقى بهم ـ الآن ـ فى عراك.

وعلى طول هذا المقال أرجوكم أن تفتحوا أبصاركم على كلمة ـ الآن ـ

أنهم يعرفون جيدا أقرب الطرق لتصفية الثورة، وكبكبتها فى الهاوية.

إنه الذهاب إلى القتال .

ذلك أنهم يعلمون ، ويا ليتنا كذلك نعلم،أن الثورة إذا ذهبت هناك ، فلن تعود . . وبريطانيا حريصة على اهتبال هذه الفرصة قبل أن يشتد بأس الثورة ، ويتحول عزمها اليافع إلى عملاق .

وأن بريطانيا لفى دهشة مما يجرى حولها . . وهى ترقب مستقبلنا وانتفاضتنا الغلابة بعين مكذبة لما تراه . . وأنها لتسأل وتلح على نفسها بالسؤال .

أصحيح هذا . . ؟

مصر التى كانت بالأمس ولاية علوية لم تعد ولاية،ولم تعد علوية .؟

وفاروق ، الذى كان ملكا على مصر وسفيرا للاستعمار فى مصر . . لم يعد ملكا . . ولم يعد سفيرا ..؟!

مصرستقررمن اليوم مصيرها وحدها .وفى غيبةمن سادتها الانجليز؟!

مصر ، ستمارس انتخابات حرة ، لا يشوبها ضغط الانجليز ، ولا توجيه عملاء الانجليز ..؟!

وهذا السد العالى ، سيقوم وسيتشامخ ، وتغرق أمواهه المقدامة كل آمال الامبراطورية الغاربة فى الاستغلال والاستثمار ..؟!

كل هذه الحقائق المزعجة تدور اليوم برأس الاستعمار البريطانى ، وتسحق أعصاب دماغه سحقاً يود لو يشفى منه ، ولو بعملية جراحية يجربها فى . . القنال .!!

أجل . ولندرك هذا جيدا . أن بريطانيا تبصر مستقبل مصر ، وقد أهلت طلائعه،فلا تريد أن تصدق ما ترى . . ولا تريد أن تدع الأمور تجرى لمستقرها المحتوم.ومن هنا ، فهى تريد أن تستدرجنا إلى القنال ..

الآن . لماذا ؟.. لسبب واحد،هو ألا يبلغ نمونا الجرىء المنطلق مداه .

وبريطانيا فى هذا الوعى ليست صاحبة فضل فهو الاستعمار يصنع ذلك أبدا . . ولعل من الخير لنا أن نهتدى بالتاريخ فى هذا المقام . .

ففى عام - ١٨٥٢ - تقلد « كافور » منصب رئيس وزراء دولة « بيمونت » وكانت الامبراطورية النمساوية الظافرة تصلى هذه الدولة الحرة وبالا من استعمارها الظلوم . وكانت هناك ثورات دامية قامت فى كل مكان من إيطاليا ضد الاستعمار المشترك فى سنوات - ١٨٢٠ ، ٣٠ ، ٤٨ - بيد أنها باءت جميعاً بالاخفاق . . فلما انتهت مقاليد الأمور لكافور، رأى أن المعركة يجب أن تبدأ مع الإنتاج لامع الاستعمار . وفعلا أهاب بينابيع الثورة أن تنفجر وتفيض . وأخذ بيد الصناعة والتجارة والزراعة، ونظم التعاون، وإنشأ الطرق ، فى حفر نفق عظيم يصل إيطاليا بفرنسا عبر الالب . وإبرام اتفاقيات تجارية بينه وبين دول كثيرة .

وذات يوم ، والمعركة الجادة الواعية تدور . زاره مندوب الامبراطورية النمساوية يطلب إليه تنفيذ أمرين .

أولهما - القبض على الأحرار « الأفاقين » الذين يزعجون بنشاطهم العدائى سكينة الأمبرطورية . ولقد وصفهم بالأفاقين لأن كلمة «هدامين» لم تكن قد اخترعت بعد !

ثانيهما - وافتحوا عيونكم يا جميع الذين تحبون مصر على هذا الأمر - وقف كل الأعمال التى تهدف إلى زيادة الإنتاج وزعزعة الحياة الاقتصادية للبلاد .

واستأناه كافور ثلاثة أيام . . أذاع خلالها منشورا باسلا قال فيه .

« يا جميع الأحرار المضطهدين فى كل إيطاليا . . يا أيها الذين يعتبركم امبراطور النمسا الأفخم ، أفاقين . أن مملكة بيمونت تريد أن تقيم مجدها على سواعد الأفاقين ، فسارعوا إليها » !

واندفع كالسيل فى أرباء الإنتاج وزيادته حتى لقد اقتطع من أوقاف الكنيسة مالا غزيراً ووضعه فى خدمة الإنتاج .

وفى اليوم الثالث ، والأخير للمهلة المتفق عليها ـ طلب من سكرتيره الخاص أن يرسل إلى امبراطور النمسا هذه الرسالة .

« لقد نفذنا توصياتكم الموقرة بالطريقة التى نجيدها ونفهمها . . وأحب أن أقول لك : أن النمسا لن تستطيع أن تستمر فى حكم أمة تتألف من عشرين مليون شخص رغم إرادتهم . ونحن أقوياء باتحادنا . واثقون من عدالة قضيتنا . . وسنظل مكاننا ، نرقب بالحكمة والعزم المتين أمر الله فينا . . » !

أجل . سنظل مكاننا نرقب بالحكمة والعزم المتين أمر الله فينا .
ولقد كان أمر الله فى كافور ، وفى وطنه مثوبة عاجلة ، ونصرا مؤزرا ، وحرية سابغة . . إذ توحدت إيطاليا تحت زعامة بيمونت ونالت ما تريد من حرية وسيادة .

ترى لو أن كافورا غامر ببلاده فى معركة هوجاء ، ركضا وراء بطولة زائفة ، أو سمعاً لصيحة مغرضة . فأى مصير كان سيلاقيه وتلاقيه معه بلاده . . ؟

وهكذا يريد الاستعمار دائما ألا يرى فى البلاد الجانية نهضة

أو إنتاجا . وهو ماتريده بريطانيا اليوم إذ تتعجل بكل الوسائل سفرنا إلى القتال . . ! ؟

ليس هذا الحديث ـ طبعا ـ دعوة إلى الاستسلام ، فليس صاحبكم من يفعل هذا ، ولقد ضربت لكم المثل برجل حفظ له التاريخ قولته الباقية .

« إذا عجزت عن تحرير إيطاليا بالسياسة ، فسأحررها بالثورة ، ولن نقف فى منتصف الطريق أبداً » .

فإلى الذين يستحثون المعركة ليشموا من ترابها ريح الجنة . .

وإلى الذين يريدون أن يخضبوا بدمهم الطاهر أرضنا الطيبة الوفية .

وإلى الذين يتعجلون الموقف الفاصل ليثأروا لدم الآباء والأمهات .

إليهم جميعا أقول : اطمئنوا ، فان ماتبغونه آت لاريب فيه . ولن يجلو الانجليز عن بلادنا إلا كرها .

ولكن، علينا أن نذكر أن المعركة المقبلة ، هى الفاصلة ، فأما مصر ولا شىء معها . . وأما بريطانيا ولا معقب لها ، ولن تكون بالنسبة لنا معركة ، بل صلاة وثأراً ، نودع بهما عالما ملتاثا ، منافقا ، مسعوراً .

فلنحذر أن نذهب إليها لاعبين ، ولنحذر أن نذهب قبل أن يرتفع بناؤنا الداخلى وطيدا سامقا . .

أن الأمر مختلف جدا بين مغامراتنا أيام فاروق . . وبين مغامرة المستقبل العظمى التى تنتظرنا ، ففى تلك الأيام الذاهبة كنا بين نارين .

كان الانجليز أمامنا ، والأسرة العلوية الكريمة وراءنا (! !) ولم يكن بد من أن نتحرك فى أى اتجاه ، ولو ضد أنفسنا . .

كان شعارنا يوم ذاك : ليس لدينا مانخسره . !

أما اليوم ، فلدينا كثير ، يجب علينا أن نحرص عليه . . كثير يجب ألا نخسره وألا نفرط فيه . .

معنا جمهورية ناشئة فتية علينا أن نصونها .

معنا ثورة ظافرة . علينا أن نحميها من أعدائها ، ومن أصدقائها حتى نحقق بها ذخائر إمكانياتنا .

معنا فرصة جليلة تهدى خطواتنا إلى مستقبل مترع بالرخاء ، والقوة ، والتفوق . يجب ألا ندعها تفلت من أيدينا .

والأرض . . الأرض التى سنقاتل دونها صارت أرضنا . .

فانظروا كم هو بعيد إذن الفارق بين مغامرة الأمس ، ومخاطرة اليوم . فلنتهيأ للموقف الفاصل فى هدوء لا يفسده التشنج ، ولا الولولة ولا الصياح .

لقد أمر الله المؤمنين أن يصمتوا عند الزحف ، وكره لهم أن يتحدثوا خلاله ، ولو بذكره وتسبيحه . ونحن الآن على أعتاب زحف رهيب ، فلنصمت . ولنحذر أن نمكن الأعداء من الفرصة التى يتحينونها . .

أم تقولون أن هذه الاثارة وهذا التحريض لازمان لتعبئة الشعور . . ؟ ألا فاعلموا إذن أن بين التهيئة والتهييج خيطا دقيقا . . وأن عاقبة التهييج خسران ووبال .

ولقد ظل موسولينى يخطب قومه سنين عددا من فوق فوهة مدفع ويجلجل بعبارته المأثورة « الويل للأمم غير المسلحة » ثم اندلقت أمعاء مجده وكبريائه على أرض دويلة صغيرة اسمها اليونان . . !

فبحق مصر المقبلة ، لا يصرفنكم عن الإنتاج صارف . . ولا تتحرشوا بالعدو قبل الأوان .

وإذا كنا ارتضينا أن يكون شعارنا الأول ، لكى نربح الثورة : لا خطوة إلى الوراء . .

فلنفكر فى أن يكون شعارنا الثانى : هنا . . حتى يقوم البناء : .

ـ نشرت فى جريدة الجمهورية فى ٢٥/١٢/١٩٥٣ ـ
« وكانت دول الغرب تحتفل يومها بعيد ميلاد السيد المسيح »

اتركوا المسيح .. فكلكم يهوذا ..!!

« يا أولاد الأفاعى :
كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم لجرة ..؟
ويل لكم أيها القادة العميان .. »
ـ المسيح عليه السلام ـ

سننعطف اليوم عن سلسلة الموضوعات التى تعودنا اللقاء عندها ريثما نؤدى للعالم الغربى تحية العيد ....

وإنه لعزيز علينا أن تجىء تحيتنا عابسة يابسة ...

وعزيز علينا أيضا أن نزجيها لشعوب الغرب وحكوماته معا .. بل لشعوبه قبل حكوماته ، فما عدنا قادرين على أن نخلى الشعوب هناك من مسئوليتها الجنائية عن الضلالات السادرة التى يقترفها كل يوم حكام جاءوا ثمرة اختيار واع ومشيئة قاهمة لتلك الشعوب .. !

وما مناسبة هذه التحية التى سنزجيها يا صحاب ... ؟

انها عيد ميلاد السيد المسيح .. حيث سيقف سادة العالم الحر وسدنته يصلون من أجل سلام البشرية .. وحريتها .. ورخائها !!

ذلك أنه عندما تطلع شمس نهارنا هذا ، حاملة إلى نصف سكان

الكرة الأرضية يوما جديدا مملوءا بالآلام، والمذابح ، والمؤامرات ، سيكون العالم الحر قد شرع يقطع الطريق فى دلال وزهو إلى الكنائس والمعابد .

ستذهب الجماعات . ، وسيذهب الحكام والقواد والزعماء مدثرين بغرور عظيم . ، ولسوف يستقبلون الهيكل ويقولون :

« أبانا الذى فى السموات . . .

« ليتقدس اسمك . . . .

« ليأت ملكوتك . . .

« لتكن مشيئتك كما فى السماء ، كذلك على الأرض . . .

« خبزنا كفافنا . . . (!) أعطنا اليوم . . . واغفر لنا ذنوبنا ، كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا . . . (!)

« ولا تدخلنا فى تجربة . . . .

« لكن نجنا من الشرير . . . .

« لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد ... آمين . . »

ألا فليلطف الله بأرضه وبسماواته فى هذا اليوم الملىء بالمتناقضات ...

انظروا . . .

إن اللصوص الذين يسرقون كل يوم شعباً ، ويغتالون أمة ، ثم يقولون هل من مزيد . ؟ سيضرعون إلى الله قائلين : خبزنا كفافنا . . . أعطنا اليوم . ! !

وإن السفاحين الذين رووا الأرض بدماء البشر ، وملأوا الأفق بزهمة الشواء المنبعث من أكداس الجثث الشهيدة البريئة . ، سيبتهلون

إلى الله قائلين . اغفر لنا ذنوبنا ، كما نغفر نحن للمذنبين إلينا ... !!

وإن الذين احترفوا الزج بالبشرية فى عماء موحش من القلق والفتن والذعر ، سيسألون الله ألا يدخلهم فى تجربة . . . !!

إن مجرد تصور هذا المشهد أو تخيله . ، لمغامرة لايقدر عليها سوى أولى العزم من الرجال . . فكيف نتخيل قواد أمريكا الذين يشترون أمم الأرض بدولارهم . والذين يستدلون على أن المريخ كوكب غير مسكون ، بأنه لو كان كذلك لأرسل سكانه يطلبون منهم إعانة أو قرضا . . .

كيف نتخيل هؤلاء ، وهم يقولون : خبزنا . . . كفافنا . . ؟ !

وكيف نتخيل جبابرة حزب المحافظين ، وقد وقفوا فى تواضع وأدب لم يتعودوهما قط . . كيف نتخيلهم يناجون الله قائلين له سبحانه : ليأت ملكوتك . . . ؟ !

أممكن هـــذا . . . ؟ وهل سيفسح صلف الامبراطورية وغرورها مكانا لملكوت الله حين يجىء ، أم أن حزب المحافظين لن يعدم الصفاقة التى يعلن بها أن ملكوت الله نقطة « استراتيجية » للامبراطورية المقدسة ، أو الكومنولث العظيم . . ؟ !

وفرنسا . . ماذا ستقول فرنسا . . ؟

الحق أنها مهزلة كبرى ستمثل اليوم على أوسع نطاق .

فيا أبانا الذى فى السموات ـ لا تنظر إليهم ولا تصدقهم . .

فهؤلاء الذين يلبسون اليوم مسوح الرهبان . ، هم الذئاب المسلطة على شعوبك وعبادك .

وهؤلاء ـ يا أبانا ـ هم الذين أخرجوا العرب من بلادهم حفاة عراة لتتحقق فيها أعلام الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . . .

أجل . هؤلاء ـ يا أبانا ـ أقاموا على شريعة العدل والحق والشرف دولة لليهود الذين قالوا : أن المسيح ثمرة محرمة لسفاح آثم نشأ بين مريم العذراء ويوسف النجار . . .

العنهم إذن ـ يا أبانا ـ ودمر باطلهم ، وفل بأسهم لكى يزداد المؤمنون بك إيمانا . .

ويا أبانا الذى فى السموات ـ انظر إلى تونس ، ومراكش ، والجزائر ، والقنال ، وكينيا ، وجيانا ، وإيران ، والهند الصينية .

إن شعوب هذه البلاد ضحايا ذليلة ،وضحايا بريئة ، يقدمها قرابين لأطماعهم ، أولئك الذين ينادونك الآن ويقولون : يا أبانا . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض . . !

أنهم يكذبون . وإنهم لأكثر الناس حربا على مشيئتك وتحديا لها . لأنهم يعلمون أنها إذا جاءت لا يفلحون . . .

ما لهؤلاء والمسيح . . . ؟

إن كل ما يربطهم به من سبب ليس أوثق مما بين يهوذا ، والمسيح . بل لا . واستغفر الله كثيراً ، فلقد طهر الموت يهوذا من خطيئته ، ووشايته ، أما هؤلاء ، فإنهم يقتلون المسيح كل يوم عشرات المرات . ثم لا يتوبون ولا يتطهرون . انهم يتقـــربون إلى المسيح بنقض ناموسه ، وإهدار شريعته ، والسير على نقيض ما يقول ! !

لقد قال المسيح للذى سأله وهو فى طريقه إلى عينيا :

« إذا أردت أن تدخل الحياة الأبدية فاحفظ الوصايا » .

« لا تقتل . . لا تزن . . لا تسرق . . لا تشهد الزور . . . »

فبم نسمي المذابح التي يديرها استعمار الغرب في كل مكان ، إذا لم تكن قتلا . . ؟

وبم نسمي مناطق النفوذ التي يقتسمها حلفاء الغرب . إذا لم تكن سرقة . . . ؟

وبم نسمي انحياز مجلس الأمن وهيئة الأمم لجانب الطغاة ، وتبريرهما عمليات السطو والنهب ، إذا لم يكن ذلك كله شهادة زور .. ؟

أهؤلاء الناس أتباع المسيح الذي قال : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون قاتلا . ؟ أفهذه الوحوش الضواري أتباع الذي قال . من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا . . . ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . . . ؟ ! !

يا ليتنا نستطيع أن نحول دموعنا وأسانا إلى قهقهات ساخرة تكون لعبث هؤلاء ، تحية وهدية . !

إن غيرتنا على المسيح تحفزنا لاستنكار هذا العبث وذلك السخف . ويقيننا أنه لا شيء يفوق احتقار المسيح لهذه المهزلة ، سوى احتقاره لهذه المهزلة . . .

ولو أنه يعود اليوم ويستقبل تلك الوجوه الباسرة الكافرة . وجوه ساسة الغرب وزعمائه ، لصرخ فيها بنفس كلماته الغاضبة التي صاح بها في وجوه أخوة لهم من قبل : —

— « أيها المراءون عطلتم كلام الله وأحييتم سننكم . . لقد تنبأ

أشعيا عنكم فقال : هذا الشعب يسبح لى بشفتيه ، وقلوبهم غلف . .
« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون .
« ويل لكم أيها القادة العميان . . .
« يا أولاد الأفاعى . كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة . . . ؟
« إن ملكوت الله سينزع منكم . ويعطى لأمة تعمل ثماره » . ! !
كان المسيح سيلطم وجوههم بهذه القواصم لو أنهم اليوم بين يديه .
كان سيرسل عليهم قارعة من توبيخه وهو يسألهم كيف تنطقون بالصالحات وأنتم فجرة . . . ؟
كيف تتشدقون بالحرية والسلام والرخاء . وأنتم تستعبدون الشعوب ، وتوقدون الحروب ، وتسرقون أقوات العالمين . . ؟ !
وماذا أيضا لو أن المسيح العظيم يعود . . ؟
كان سيلقى على هذه الدول الموصوفة بالكبرى نظرة طافحة بالمرارة والاشمئزاز والمقت يدمدم عليها بنفس كلماته المتأججة التى دمدم بها ـ قبلا ـ على قرى عاصية تحدت ناموسه ، وعاقت سبيله .
فيشير إلى أولاها ويقول : ويل لك يا كورزين . . . ويل لك يا بيت صيدا . .
ويشير إلى ثانيتها العجوز ويقول : أورشليم : يا أورشليم . يا قاتله الأنبياء وراجمة المرسلين » . ها هو ذا بيتك يترك للخراب .
ويشير إلى ثالثتها ويقول : وأنت يا كفر ناحوم . المرتفعة إلى السماء ... (؟) ستهبطين إلى الهاوية .
أجل ولسوف يفعل المسيح هذا بصورة غير منظورة

وهذه الألسنة التى تتلوى كأذناب السياط داعيـــة مبتهلة ، لن يستجيب الله لها . . . وتلك الأيدى المخضبة بدماء المظلومين سيردها الله خزيانة فارغة . . .

والمسيح . . . . ؟

المسيح الرحيم الكريم لن يشهد عيدكم الفاجر . ؛ لأنه فى شغل عنه. بشهقات المعذبين ، وصياح الحصادين

لن يكون معكم لحظة من نهار

بل سيكون هناك . .

مع الودعاء الذين بشرهم بأنهم يرثون الأرض

مع الرحماء الذين أخبر بأنهم يرحمون

مع صانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون

ولسوف تجىء مشيئة الله التى تطلبونها . .

ويومئذ ستنهار حضارتكم فوق رؤوسكم . ، وتتصدع بابل العظيمة. التى تبنونها من عظام الأمم وأشلاء الشعوب ، ويستبدل الله بكم بشراً آخرين . ، ودعاء . رحماء

يحترمون الحق

وينشرون العدل

الخطابات المفتوحة

إلى شيخ الأزهر

ليس المشكل النصيحة . .
وإنما ، المشكل قبولها . .
الغزالى

قصة هذه الخطابات :

عندما ولى فضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج منصب شيخ الأزهر اهتبل الكاتب الفرصة ليدلى برأيه فى بعض مشاكل الأزهر . ، وليهيب بالمسئولين كى يمكنوا هذه الجامعة التليدة من أداء دورها ورسالتها . . فكتب على صفحات « الجمهورية » مجموعة من الخطابات المفتوحة إلى شيخ الأزهر.

ولقد أثارت هذه الخطابات المفتوحة كثيراً من اللغط واللغو . فظن قوم أننى أريد بالأزهر السوء . . بينما اتهمنى آخرون برجعية التفكير لأننى أحرص على بعث الحياة فى شيء ميت ، قد انتهى دوره ، وانتهى وجوده . . !!

فهل كنت أسىء للأزهر حقاً كما ظن البعض . . ؟

أو . ، هل انتهى دور الأزهر حقاً ، كما يزعم آخرون . . ؟

إن رأى الكاتب واضح فى المقالات التى يطالعها القـــارىء على الصفحات المقبلة .

وهو رأى يحمل للأزهر احتراما صادقا . ويؤكد بقاء دوره . وفى نفس الوقت يحاول أن يضع عن كاهله تلك الأثقال المبهظة التى تنقض ظهره ، وتمتاق سيره .

وسوف يلتق القارىء بعبارات ، حمى فيها وطيس النقد ، وغلا مرجل الحديث . .

ولـكن ذلك لا يعنى مطلقاً الرغبة فى الـكيد للأزهر ، ولا الرغبة فى التشهير به .

فكاتب هذه المقالات ، واحد من ألوف كثيرة ، من الطلاب الذين لولا إيواء الأزهر لهم ماوجدوا سبباً يصلهم بالمعرفة ، ولاطريقاً يفضى بهم إلى ما هم فيه اليوم من نعمة وخير .

ولقد كنت على وعى بهذه الحقيقة ، وأنا أكتب تلك الخطابات المفتوحة . . .

والعبارات الحارة فيها ، لا تمثل رغبة فى التشهير كما قلت ، وإنما تمثل طريقتى فى الـكتابة .

فأنا إنسان ، لا يكتب بعقله وحده . وإنمـا يكتب بأعصابه وبقلبه أيضاً . .

ولو كنت أرى أن الأزهر شىء فقد موضوعه ، وينبغى أن يختفى ويزول ،

لما وجدت على ظهر الأرض قوة ، تستطيع أن تصدنى عما أريد أن أقول..

وإنه لمن حسن حظ الذين يقرءون هذه الخطابات ، بل والذين يقرءون لى بصفة عامة ، أن يدركوا هذا جيداً .

إنى ـ والفضل لله وحده ـ كاتب يتحرى الصواب غاية جهده . فإذا التقى به ، ورأى من واجبه إعلانه . فلا سبيل إذن ـ أى سبيل ـ للهرب ، ولا للكتمان .

ولا يمكن أن يريد بالأزهر سوءاً ، كاتب يقول فى بعض الخطابات المفتوحة « الأزهر غدة تفرز ما ليس للناس فى بلادنا غنى عنه . بل هو « عقدة التنفس » لأمتنا ، ولأمم كثيرة غيرها . وسيظل كذلك لنا ، ولتلك الأمم ، ما دام هنا وهناك ، عروبة وإسلام » .

ولكن من غير الممكن أيضاً أن يسكت هذا الكاتب عما فى ثقافة الأزهر ، بل وفى ثقافتنا الدينية كافة ، من خرافات وأكاذيب .

ولقد كانت جريدة الجمهورية قد نشرت ـ امتثالا لحرية النشر ، ونزولا على رغبة الكاتب ـ معظم الآراء المعارضة لوجهة نظرنا :

والآن ، ونحن نعيد نشر الخطابات ضمن مقالاتنا ، التى رأينا جمعها فى كتاب ، فقد اخترنا من تلك الردود ، والآراء المعارضة أرسخها ، وأكثرها تمكناً من فن الحوار والجدل . حتى نكون عدولا فى عرض جميع الآراء التى تصدت لمناقشة هذه القضية .

وسيطالع القارىء هذه الردود المختارة بعد الخطابات الستة . .

وبعدها ، يطالع ثلاث مقالات أخرى للكاتب فى مناقشة هذه الردود ، وتفنيدها .

الخطاب الأول :

احمل المعول واهدم .. قبل محاولة البناء

فى أواخر شهر مايو عام « ١٩٥١ » هبط من الجو لورد بريطانى هو لورد كرزون وكان يعمل أبان الحرب العالمية الأخيرة مديراً لأقلام مخابرات الانجليز فى الشرق الأوسط . . وجاء مصر فى زيارة خاصة . لغرض خاص . .

وبعد أن استراح فى دار السفارة الانجليزية بجاردن سيتى ، قصد إلى الجامع الأزهر . وتجاه المكتب الذى تجلس فضيلتكم إليه الآن جلس اللورد يحتسى مع شيخ الأزهر الأسبق فنجالا من القهوة .

وأخيرا . . خرج وفى جيبه فتوى من الأستاذ الأكبر بأن الإسلام يحرم تحديد الملكية ..!!

ودلف اللورد إلى غرفة مجاورة حيث تبادل القبلات مع وكيل الأزهر الأسبق ، وبعد أن دخن مع فضيلته بعض لفائف التبغ ، خرج وفى جيبه فتوى أخرى مماثلة وقعها فضيلة الوكيل ، أو بصمها . وهى أيضا خاصة بتحريم تحديد الملكية ..!!

وعز على مفتى الديار المصرية حينئذ ، ألا يدعى لهذه الوليمة .. وألا تقع عليه عين اللورد العظيم، فتطوع بشهادة زور ثالثة وتجشأ هو الآخر فتوى شبيهة بأختيها السابقتين حسبة منه وتقرباً إلى اللورد وإلى الدولة التى يمثلها . .

هذا مثال لبعض كبار علمائنا . .

واسمع الثانية :

فى عام « ١٩٣٧ » كان يدرس لنا شيخ ينضح كراهية ومقتاً للإمام الراحل « المراغى » . . وكان يتلمس المناسبات ليحدثنا خفية وبعد أن يحكم إغلاق النوافذ والأبواب عن مساوىء الشيخ المراغى . .

وذات يوم وجدنا الشيخ المذكور متلبساً بتقبيل يد المراغى وقد قوس ظهره كأنه فى ركوع . . وأثناء الدرس سألناه عن هذه المودة الطارئة والإخلاص المواتى ، فأجابنا قائلا :

ـ يا أبنائى . نقبلها .. ونلعنها . !!

ثم علمنا بعد هذا أن هذه العبارة « نقبلها ونلعنها » نص وقاعدة يلتزمهما بعض شيوخنا من أئمة الهدى والصلاح .

وهذا أيضاً مثال لبعض رجال الطبقة المتوسطة من علماء الأزهر ..

واسمع ، أو اقرأ الثالثة :

فى عام « ١٩٣٦ » كنا ندرس كتاباً كبيراً من كتب الفقه وكان يضم بين دفتيه حشدا هائلا من ثقافة عجيبة . . وأكتفى الآن بضرب مثل واحد . هو ذا :

« مسألة » ـ ومن صلى وهو يحمل قربة فساء ، فهل تصح صلاته أم تكون باطلة ..؟؟!!

هذا ـ يافضيلة الأستاذ ـ مثال للفضول الموجود فى مناهج التعليم بالأزهر . .

وأنا أضرب لك هذه الأمثال لتلق ضوءا على المناخ الذى ستعمل فيه ، وعلى المهام الجليلة والشاقة التى تنتظرك .

فأمامك علماء كبار يسيل لعابهم كلما برقت لأعينهم الظامئة مطامع الحياة الدنيا وشهواتها . فيضعون الدين فى خدمة هذه المطامع الرخيصة والشهوات الفانية .

وأمامك علماء يمشون فى مناكب الحياة وملء أرديتهم الفضفاضة : مداراة وضيم إذا لاقا بعامة الناس ، فإنهما لا يليقان أبداً بالأئمة الأعلام . . وأمامك مناهج ، هى خليط متنافر عجيب من المعرفة والخرافة ، مناهج يتخلف بعضها عن الحضارة الإنسانية قرونا ، فلم تعد قادرة وحدها على تخريج الإنسان المثقف الذى تلتمسه الدنيا وتنشده الحياة .

وعندما تلقى من نافذة مكتبك نظرة مديدة ،فيقع بصرك على صفوف طويلة من القبور الجاثية فى « قرافة المجاورين » .

عندما تفعل ذلك ، فتذكر يا صاحب الفضيلة أنك والأزهر معك تعيشان فعلا فى جو جنائزى . .

أجل ، من حيث الشكل ومن حيث المعنى .

ولذا ، فإن مهمة فضيلتك تبدأ من الإجابة على هذا السؤال :

ـ ما هذا الشىء الضخم ، الذى يسمى الأزهر .. ؟

أهو ضريح .. أم جامعة ..؟

فإذا كان ضريحا ، فليبق كما هو . تعبق فى أجوائه زهمة الماضى ، وحنوط الأبدية .

وإن يك جامعة غرضها تخريج أفواج مضيئة من بشرية واعية نافعة، فليمض على الدرب الذى خطته الحياة للجامعات .

على أن الأزهر فى الحقيقة أكثر من جامعة .. أنه غدة تفرز ماليس للناس فى بلادنا غنى عنه . بل هو «عقدة التنفس» لأمتنا ، ولأمم كثيرة غيرها ، وسيظل كذلك لنا ، ولتلك الأمم . مادام هنا وهناك عروبة وإسلام . . فهل تؤدى « عقده التنفس » هذه وظيفتها .. ؟

هل يسدى الأزهر للإسلام خيرا أو يبذل واجبا ..؟

أن السذج الغافلين هم وحدهم الذين ينتظرون من الأزهر ـ بحالته الراهنة ـ نفعا للدين أو للأمة ، مالم يغير ما بنفسه وينهض . .

فالأزهر أكثر جامعات الدنيا ترديدا للقاعدة التى تقول : « فاقد الشيء لا يعطيه . . »

فإذا فقد الأزهر مقومات الحياة ، فكيف يهبها للآخرين ؟

وإذا افتقد المزيد من النور فكيف يضىء للآخرين . . ؟

وإذا افتقد فضائل العصر ، فكيف يستطيع أن يعطى الناس هذه المزايا التى أجلت منها داره . . ؟ ؟ !

لو كان على ظهر هذا الكوكب ـ يا صاحب الفضيلة ـ ثلاثة فقط يحبون الأزهر ويقدسونه لكان كاتب هـــذه السطور أحد الثلاثة إن لم يكنهم جميعا .

وإذن ، فلست أريد التشهير بالأزهر ، ولكنى أريد ـ وليتنى أفلح فى هذا ـ أن أشد زناد الغيرة على الأزهر إلى أقصاه حتى ننقذ من حاضره ما يحى الرجاء فى مستقبله . . وأريد أن أعاونك على رؤية الحقيقة الباسرة الكالحة .

لقد التقى فيك ـ ياشيخ الأزهر الجديد ـ الشرق والغرب . . التقيا فى عقلك لقاء وثيقا ودودا . أو هكذا نرجو لك أن تكون . فإذا

أضفنا لهذا شباب سنك ، وشباب قلبك وجدنا فى أيدينا فرصة تتهلل بالبشر والرجاء .

ولكن دعنى أصارحك بأن الثقافة والشباب والفضيلة تتحول جميعها إلى تراب مالم يكن وعاؤها قلبا شجاعا ، وضميرا مستبسلا .

ولطالما ضيع الجبن أمما وفرصا . ولطالما حول التردد عمالقة إلى أقزام . .

وما أصدق الحكمة الصينية القائلة :

« قد يجد الجبان ستة وثلاثين حلا لمشكلته . ولكنه لا يعجبه سوى حل واحد منها . هو . . الفرار » !!

فاستبعد الفرار والتردد من منهاجك أيها الشيخ . ثم امض فى أية طريق . . أجل فى أية طريق فستجد « روما » أمامك . .

إذا بدأت بالبناء فستخفق إخفاقا ممتعا (!!) .

احمل المعول واهدم . . إن أمامك أشياء كثيرة ، وكثيرة جداً تستحق الهدم .

اهدم التقاليد الأخلاقية الضالة التى تجعل من بعض علماء الإسلام صغارا ومنافقين .

اهدم التقاليد العلمية الضالة التى تجعل من بعض علماء الإسلام بلها ومغفلين .

فهذا أول واجباتك لكى تحول الضريح إلى جامعة . . إلى قلعة . إلى برج بابل تخرج منه الحكمة وتنبثق الأضواء .

وماذا أيضاً يا صاحب الفضيلة . ؟

إن الحديث طويل ، فإلى غد حيث نرجو من الله أن يعيننى على استئناف الحديث

الخطاب الثانى :

رد الكرامة والثقة . . إلى أزهرك الجريح

قلت لك بالأمس أن الشرق والغرب يلتقيان فيك . ولكن ذلك ليس بنافعك ولا بجديك شيئاً حتى تضع فى خدمة ثقافتك قلباً شجاعاً ، وعزما كعزم المرسلين .

لقـــد سبقك إلى المنصب الذى تقلدته رجل عظيم جاء من « السوربون » هو المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق .. وغداة توليه قال : لقد جئت لأدفع الأزهر بكلتا يدى إلى الأمام . ثم قضى نحبه وما صنع شيئاً .. ومن قبله كان يقود الأزهر عظيم آخر ، وهو المغفور له الشيخ المراغى الذى كان على وعى وثيق ووجدان عليم بكل احتياجات الأزهر التقدمية . ولكن ماذا صنع ..؟ لاشىء أيضاً !

لا شك أن روح العهد الغابر ومعوقاته ودسائسه تحمل من مسئولية إخفاق الشيخين نصيباً كبيرا . ولكن لاريب أيضاً أن عزيمتى الشيخين خانتهما . وأن التردد فى ساعة الحسم والمخاطرة قد حولت ـ كما قلت فى خطاب الأمس ـ العمالقة إلى أقزام .

فخذ العبرة لنفسك أيها الشيخ الجديد ، ولا تنس أن خبائث العهد الماضى ومعوقاته قد ذهبت معه فى رحلة أخيرة إلى أرض النسيان . فإذا أخفقت ، فلن يكون ثمة مسئول سواك .

والآن ، لنبدأ حديثاً جديداً . ودعنى ألتمس منك شجاعة أستطيع أن أواجه بها معك حقيقة مريرة ـ هذه الحقيقة يافضيلة الأستاذ الأكبر ـ

هى أنك تتقلد اليوم منصبا فقد كثيراً من الثقة .

وى ..! ـ أترانى أجرمت كثيراً ..؟ ـ ولكن لا بأس لحملة الحقائق والمجلجلون بها يبدءون فى أعين الناس مجرمين . ثم تتفتح قلوب الناس رويدا رويدا . فيقولون : ياويلنا ، إنا كنا ظالمين . . . فلا تخش إذن أن تواجه قومك بهذه الحقيقة. وإذا أعرضوا عنها وجه النهار فسيجنحون لها آخره . إن الحقائق لا تنصر نفسها فحسب ، بل وتنصر دعاتها أيضاً ..

أجل ـ لقد فقد الأزهر كثيراً من الثقة المتبادلة بينه وبين نفسه ثم بينه وبين الناس . وأسباب ذلك من الوفرة بحيث لا تتسع لها هذه السطور ، فلنتعقب أهمها وأكثرها عتوا وجسامة . . وقبل هذا نسأل

ـ هل هان الأزهر على نفسه أولا . ثم هان على الناس بعد ذلك .

أم أن الناس هم الذين نكروه وامتهنوه ، فانتقلت العدوى إليه .

أن الموازنة بين مرحلتين من تاريخ الأزهر تقنعنا بأن الأزهر هو البادىء ، وهو الذى دعى الناس إلى الشك فيه والتفزع منه .

فرجال الأزهر القديم الذين لم يكونوا يستمدون هيبتهم من مال . إذ كان مرتب أحدهم قروشاً معدودة . ولا من عصبية . إذ كانوا أبناء الطبقة المعوزة الفقيرة .. ولا من سلطان . إذ كانوا أبعد الناس عن السلطان .

أولئك الرجال جميعا كانوا مفزع الشعب وملجاه . وموطن تقديسه وشغفه .. وكانوا أعلاما قومية تخفق فى سماء بلادهم ، فتخفق معها عزة البلاد وشرفها وكبرياؤها . . فإذا ذهبنا نبلو خصائل هؤلاء وأخبارهم نجد حديثا عجبا .

فهذا عالم بسيط يدخل عليه الخديو أو السلطان وهو يلقى درسه

فى فناء الأزهر . وقد تحلق الطلاب حوله على الحصير ، وبسط الشيخ ساقه أمامه بسبب مرض بها . ويقف الخديوى على الحلقة فى زيارة له للأزهر فلا يتحرك الشيخ من مكانه . ولا يململ ساقه الممدودة فى وجه الخديو . ويعجب الخديو بعظمة هذا الشيخ « البسيط » فيأمر له بنفحة من المال ، فيردها الشيخ قائلا للرسول الذى جاء يحملها : « قل لأفندينا : أن الذى يمد رجله . . لا يمد يده » . ! !

ونتنقل من الشيوخ العاديين إلى الشيوخ الكبار . . فنجد أحد شيوخ الأزهر وقد جاءه رسول الخديو يبلغه رغبته السامية فى أن يمتنع كبار العلماء وشيخ الأزهر معهم عن الاشتراك فى تشييع جنازة الإمام « محمد عبده » . . فيكون جواب الشيخ على هـــذا الفضول الوقح ، أن يلتفت إلى إخوانه الجالسين معه ويقول لهم على مسمع من ناظر ديوان الخديو .

« هيا بنا يامشايخ ، فقد حان موعد الجنازة » .

فيبهت الرجل ويقول للشيخ الأكبر : ألا تمتثل رغبة أفندينا . . ؟

فيجيبه الشيخ فى غضب صاعق : « إن الله وحده . . هو أفندينا » . .

يوم كان الأزهر وطنا لهذا الطراز العظيم من العلماء ، كان الوحى الذى تتلقى منه الأمة وعيها . وكان الشرف الذى تدثر به الأمة نفسها . وكان القلعة التى تدرأ عن الأمة عدوان المعتدين . .

أما اليوم ، ونحن أكثر بسطة فى المنصب والمحتد والمال ، فلا نكاد نظفر من احترامنا لأنفسنا ولا من احترام الغير لنا بمعشار ماظفر به السابقون . . فلماذا ؟

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؛ وأن مسافة الخلف بين علماء اليوم وعلماء الأمس لتساوى تماماً المسافة بين جيل شعاره « الله وحده . . هو أفندينا » وجيل آخر شعاره « أفندينا وحده هو الله »

ومن حق فضيلتك أن تسألنى : هل حدث هذا . . ؟

هل حدث أن قال علماء كبار أو صغار « أفندينا . . هو الله » ؟

وأجيبك فى يقين هادىء : نعم حدث هذا .

ومرة أخرى : نعم حدث هذا ، وسمعه سكان المريخ ، والنائمون وراء جبل قاف .

وقد تكون هذه الأمة ضحلة الذكاء ، ولكنها غزيرة الإلهام . ولقد أدركت بآلامها وفطرتها الدور المخرب الذى لعبه بعض العلماء الكبار ضد أمانيها ومصالحها .

فيوم قامت تبسط يدها إلى الطغاة تتقاضاهم لقمة تسد جوعتها ، وخرقة تستر عورتها فوجئت بصفحة من جريدة يومية ملأها عالم من كبار علماء الأزهر يتحدث فيها عن مناقب الفقر المحبوب .

ثم فوجئت بطوفان رجيم من الفتاوى التى تحطم آمالها المشروعة على صخرة الدين . . . !

ورأت كتابا صدر ينافح عن حقها فى الحياة فلم يعارضه سوى كبار رجال الدين الذين أخرجهم الأزهر ليكونوا نوراً .. ، ورأت ملكا فاسقا يفتعل انفسه نسبا كاذبا برسول الله عليه السلام فما تحرك عالم واحد ... واحد فقط ليرد عن رسول الله العار والبغى ؛ بل رأت بعض خطباء المساجد ومعظمهم من خريجى الأزهر يسألون الله من فوق المنابر أن يشمل « برعايته وعنايته وحفظه وتوفيقه مليكنا المعظم السيد فاروقا

الأول حفظه الله ورعاه » . . . ! ! !

وأسخم من هذا سمعت الأمة عالماً كبيراً وكبيراً جـــداً يقول في مناسبة دينية :

ـ « . . لقد علم الله أن مليكنا الصالح من سلالة نبيه الكريم فألهم والده العظيم أن يختار له اسما قريباً من النبوة إلا وهو الفاروق » . .

وذات يوم اجتمعت « لجنة الفتاوى بالأزهر الشريف » وقررت « شلح » أبي ذر ، وإخراجه من الإسلام .

لماذا . . لأن الطليعة الحرة الباسلة التي أخذت على عاتقها المناداة بحق الشعب في الحياة كانت تتهم دائما من لصوص الشعب بأنها . أو بأن أفرادها شيوعيون . ولكي يكشفوا كذب هذا الاتهام ذهبوا يلوحون بأبي ذر ويرددون آراءه الجريئة المضيئة . . فبدا لأعضاء لجنة الإفتاء أو بالأصح أبدى لهم أن يجردوا الشعب الجائع من حماية أبي ذر الصحابي الجليل . فظهرت الصحف ذات يوم — ياللعار — تحمل طعن السادة النجب حملة العمائم الورعة واللحى الأكثر ورعا .. ظهرت تحمل طعنهم في أبي ذر واتهامهم له بالهوس والخروج عن إجماع المسلمين . .

يا شيخ الأزهر الجديد . . .

لقد سبقك شيوخ تورطوا في الزج بالأزهر وبالإسلام في بورصة السياسة الدولية بغير مبرر وبغير ثمن . . ولا يزال بعض كبار علماء الأزهر يفعلون . . .

هل رأيت قط تصريحا أو فتوى صدرت عن بطريرك الأقباط أو عن حاخام اليهود يتحيز بها لمعسكر الغرب ضد الشرق أو لمعسكر الشرق ضد الغرب . لماذا أنتم تفعلون هذا .

الخطاب الثالث :

ابعث قومك فى رحلة .. إلى الحياة .. !!

حين اندلعت ثورة الأزهر تريد المراغى وتهتف باسمه . ورأيت طلاباً صغاراً وكباراً يقتحمون غرفة شيخ الجامع الأزهر ويهشمون مكتبه . . بل بصرت بطالب صغير فى مثل سنى يومئذ يستقبل صورة الملك فؤاد المثبتة بحائط الغرفة ويصرخ فيها كأنه يغاضب بشراً حياً ويقول : سنأتى بالمراغى رغم أنفك يا فؤاد . . !

وأجد منافع الثورة - أى ثورة - أنها ترد إلى الثوار حسن تقديرهم لأنفسهم ، وتنشر الشخصية المنكمشة الضامرة فتخفق كالراية فى ضوء الشمس وجو السماء . وكذلك فعلت ثورة الأزهر بالأزهر .

كان أصغر طالب أزهرى يومئذ يحس كأنه هو - وليس الملك فؤاد - الذى عين المراغى شيخاً للجامع الأزهر .

وكانت تلك الثورة - فى نظرى - أول رحلة رحلها الأزهر الحديث إلى الحياة . . .

ولكن الظروف التى تعلمها - يا فضيلة الأستاذ الأكبر - والتى أشرت إليها فى حديثى السابق عادت بالموكب المنطلق إلى نقطة البدء ، وقنع الثوار وشيخهم الجديد ببواكير الظفر ، وظلت الرواسب التقليدية المزمنة تحتل مكانها فى نفسية الأزهر والأزهريين ، وران الجمود على المكان والزمان ، ورفعت خيبة الأمل لواءها من جديد . .

والآن . تواتى مصر كلها - والأزهر منها - فرصة تهيب بجميع

الإمكانيات كى تتقدم و تؤدى دورها وتجنى ثمارها فى أمن وسلام .

والأزهر اليوم شديد الحاجة إلى رحلة أخرى نحو الحياة . . أعنى ثورة كثورته الأولى توقظ العملاق الراقد فى كيانه .

وإنى لألخص لك احتياجات الأزهر كى تجرى فى شخصيته الحياة . . ألخصها فى هذه العبارة « تطهير ذاكرته ووجدانه من ذكريات العجز والإخفاق والمهانة . . »

وعملية التطهير هذه ، لن تتم إلا بثورة . . وبطبيعة الحال لا أعنى ثورة تصرخ وتحطم . ولكن أعنى قوة اندفاع مع روح الثورة الحاضرة التى تريد أن تفتح طريق الحياة لكل حى فى هذه البلاد .

ثورة الأزهر اليوم إذن يجب أن تكون ضد نفسه حتى يتخلص من كل عقدها ورواسبها وعفنها .

إن الأزهرى يغادر جامعته يوم يغادرها وقد أثقل رأسه بالعلوم والنظريات والفلسفات ، ومع هذا يشعر شعورا وطيدا بأنه غريب فى قومه . . وغريب فى الحياة . . وتتراءى له من بعيد قصة أهل الكهف الذين بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة لينظر أيها أزكى طعاماً فيأتيهم برزق منه ، فإذا الذى بيده « عملة » بطل عملها ، وانتهى يومها ، وعفا عليها الزمان . .

إن جامعات الدنيا تعطى الفتى المتخرج فيها « شهادة » تكون بمثابة الدثار الذى يقيه أمطار الحياة وصقيع الزمن .

أما الأزهر ، فشهادته لا تشبه الدثار بقدر ما تشبه الكفن . .

فلماذا . . ؟ لماذا يصر الأزهر على تخريج أناس كأهل الكهف شعث غبر ، ينكرهم الناس ولا يعرفونهم .

لقد كان الأزهر ـ وهذه حقيقة لا تنكر ـ أول من أعطى الأمة دروسها البليغة فى الوطنية والحرية .. كان دائماً المحرض الأول .. والحافز الأول إلى كل عمل جليل قامت به هذه الأمة للذود عن حريتها، وتوكيد سيادتها ..

فلماذا يحفل دائماً أن يرتاد للأمة طريق الحضارة والمدنية .. ؟

إذا قلت لك يا شيخ الأزهر الجديد ، إن التفكير فى هذا الأمر يؤرقنى ، فلست مبالغا ، بل إنى لا أكاد أتصور أزهريا نهل من الأزهر السخى والجواد الحنون علما وخيرا ثم لا تؤرقه هذه المفارقات المؤسفة. اللهم إلا إذا كان ابنا عاقا لخير الآباء وأكثرهم رفدا وبرا .

سنعود إلى القاعدة التى ذكرتها فى أول خطاب .. تلك التى تقول : فاقد الشىء لا يعطيه ..

ولقد فقد الأزهر ثقته بالمدنية ، ومن ثم فما ينبغى له أن يدعو الناس إلى شىء هو به كافر ، وعليه ناقم .

ولكن لماذا يستريب الأزهر فى المدنية وينأى عنها .. ؟

والجواب يا صاحب الفضيلة : لأنه يخافها . !

ولماذا يخافها .. ؟

هذه هى مشكلته الكبرى ، ومشكلتك أيضا إذا كنت مصمما على أداء جميع الالتزامات التى يفرضها عليك واجبك كشيخ للأزهر ، وقائد للأزهريين .

إنه يخافها لأن ثقافته الخاصة شحنت ذاكرته بركام هائل من الرؤى المخيفة والأشباح الراعبة .. أجل شحنتها بالخوف من الجديد .. والعجز عن التعامل مع الجديد . و لذا ، فإن تطهير الذاكرة هنا يعنى أولا وقبل كل شىء تطهير المنبع الذى يصب فى الذاكرة آناء الليل

وأطراف النهار . . والمنبع هو الثقافة . . الثقافة الأزهرية التى وقفت عن النمو ، فوقف الأزهر معها .

وإن شاء الله سيكون موضوعنا المقبل ، والأخير وصفا جزيلا ، وعرضا صريحا للمشكلة وعلاجها .

بيد أنى حريص على دعوة فضيلتكم ودعوة كل غيور على الأزهر إلى أن تديروا خواطركم على هذه الظاهرة حتى نلتقى . . وقبل أن أن أمضى أذكرك بنبأ على بن الجهم .

شاعر ذهب إلى الخليفة فى بغداد ووقف يطريه بخير ما أسعفته به قريحة مخلصة فقال له :

أنت كالكلب فى الحفاظ على الود وكالتيس فى قـــراع الحروب
أنت كالدلو لاعدمتك دلوا يا كثير العطا ، ياغزير الثقوب

وهم به بعض حاشية الخليفة ليقتلوه ظانين أنه شبه الخليفة بالكلب وبالتيس تحقيرا له . . ولكن الخليفة الذكى أدرك كل شىء . وأمر أن ينزل فى أحد قصوره العظيمة .

وبعد أيام قرض ابن الجهم قصيدته التى ادعاها سبعون شاعراً :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدن لى العهد القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر

لقد خطا إلى المدنية خطوتين فتغير ، ولم تعد مثله العليا محصورة فى الكلب والتيس والدلو

فهل يسير الأزهر إلى المدنية .. إلى الحياة ؟ وكيف يسير ..؟

سأحاول أن أجيب فى حدود معرفتى المتواضعة – إن شاء الله – فى حديثنا القادم .

الخطاب الرابع :

كن « لوثر » . . . وابدأ من جديد

لست أدرى أى مصير فاجع كانت المسيحية ستلاقيه ، لو لم ينبثق من بين صفوف أبنائها مصلحون فدائيون من طراز لوثر . . . ؟

فبينما كانت حماقات « البابا » وجهالات الكنيسة تدفع المسيحية والمسيحيين إلى الانقراض وقف ذلك الرجل الفذ يخاطب البابا الذى كان قد احتل فى قلوب رعاياه مكان الاله . فيقول :

— « أيها الملقب نفسه البابا . ما أنت بأب لنا فى الدين ، ولا أخ لنا فى العقيدة . . . إنما أنت خرافة ، لا نجد لها فى [illegible] الم اسما أو وصفا » . . .

واستدار كصفحة السيف نحو الجماهير . . نحو الشعب المسيحى الذى كادت الخرافات تجرده حتى من آدميته وصاح :

— « . . . وأنت أيتها القطعان الضالة ، لا أمل لك فى ملكوت الله . لأنه ليس فى ملكوت الله مكان للخراف . . »

وظل « لوثر » يزأر كالأعصار حتى تم للمسيحية النجاة على يديه . .
ولكن لماذا ذكرت لوثر الآن ، وأنا أكتب لشيخ الأزهر هذا الخطاب؟
أهو الاعتقاد ـ يا فضيلة الأستاذ الأكبر ـ بأنك الرجل الذى ينتظره الأزهر والإسلام ليجنح بسفينتهما المترنحة إلى مرفأ النجاة . . ؟

لو قلت ـ نعم ـ لكنت منافقا جليلا (!) فأنا يا صاحب الفضيلة

لم أعرفك قبلا حتى يبلغ الرجاء فيك مبلغ الإيمان بك ... وليس الاعتقاد إذن بأنك الرجل المنتظر ، ولكنه الأمل فى أن تكونه ، هو الذى ذكرنى بالبسالة المؤمنة التى خاض بها لوثر معركة الواجب ، فاستنقذ شرف أمته ، وشرف كنيسته ، وشرف ديانته . .

وحتى لا يستطرد بنا الحديث بعيدا عن اللباب الذى نريده ، أسأل فضيلتكم أن تضغط على « زر الجرس » الموضوع فوق مكتبك وتطالب الموظف المختص بالإجابة عن السؤال الآتى :

ــ ما عدد طلاب الأزهر والمعاهد الدينية .

فإذا لم يكن لديه إحصاء جاهز ، فدعنى أوفر على فضيلتك وقتك الثمين لأقول لك . أنهم قرابة « تسعة عشر ألفا » . . . ذلك أنهم كانوا فى آخر إحصاء رسمى لعامى ٥٠ ــ ٥١ ــ ١٨٥٦٠ طالبا .

تسعة عشر ألفا يصنعهم الأزهر على عينه ، ويهيئهم ليحملوا رسالة العروبة والإسلام . . وغدا سيتخرج هؤلاء ، وينطلقون كما انطلقت آلاف قبلهم ، وكما ستنطلق آلاف بعدهم ــ حاملين إلى الناس هنا وفى جميع بقاع الشرق الإسلامى ما زودهم به الأزهر من ثقافة ووعى . . . .

وأنك لتعلم أن مصر وما حولها ، شديدة الأذعان للدين . بعيدة التأثر به . وتعلم أيضا أن الأزهر ــ وليس شيئا آخر سواه ــ هو المصدر الوحيد للثقافة الدينية فى هذه البلاد .

فإذا اكتشفنا أخطارا ناجمة عن سوء فهم للدين وسوء تطبيق له فإن الأزهر يحمل مسئولية مباشرة فى هذا السبيل .

والآن ، سأقص على فضيلتكم نبأ عابرا ندلف بعده إلى أرقام تحمل الجيعة وهولا . .

منذ ثمانية أعوام وأنا طالب بتخصص التدريس ، وفى نفس الوقت واعظ بإحدى الجماعات الدينية ـ قصدت إحدى القرى لأقيم بها شعائر الجمعة. وكان لى فى تلك البليدة من المصغين إلىّ ، من لو حدثتهم بأن الصلوات المفروضة سبعا لا خمسا ، لكادوا يصدقون . . !

وفى ذلك اليوم أسرّ إلى واحد من هؤلاء أنه هدد زوجته بالطلاق أن ذهبت إلى بيت أبيها فذهبت ووقع الطلاق . وأخبرنى أن مثل هذا الطلاق الواقع تكرر من قبل مرتين .

سألته : هل كنت فى هذه المرات تريد فعلا أن تنفصل عن زوجتك

قال : لا . وإنما أهددها

أجبته : أنها إذن زوجتك ، ، ولا انفصام للعروة الوثيقه التى تربطكما .

قال : كيف يكون هذا وقد خالفتنى ووقع اليمين . . ؟

قلت له : إن الله لم يجعل الطلاق يمينا تحلف بها ، ولا سوطا تهدد به وأردت أن أضرب له مثلا فقلت : لو قال إنسان فى معرض الحلف ـ علىّ الزواج لأفعلن كذا . . أو قال لواحدة فى معرض التهديد ـ أن لم تفعلى كذا « سأتزوجك » أيكون لقوله هذا شىء من الاعتبار . .

فأجابنى قائلا : لا . .

قلت : كذلك بالضبط حال من يقول : على الطلاق لأفعلن كذا ، أو يقول : أن لم تفعلى كذا فأنت طالق . .

أن كلمة « طلقتك » مثل كلمة « زوجتك » كلمتان اختارهما الشرع

ليشيء بالثانية حالة الزواج ، وبالأولى حالة الانفصال . .

وبدالى أن الرجل الذى تعود أن يأخذ منى الحديث كأنه وحى . بدالى أنه فى ارتياب عظيم . . وقال : لكن فلانا وفلانا من شيوخ الجمعية وعلمائها قالوا غير هذا وأفتوا بأنها طلقت طلاقا بائنا لا رجعة فيه . . !

قلت له : لقد قال الرسول عليه السلام « إنما الطلاق عن وطر » . أى عن رغبة واعية فى الانفصال . وكل طلاق يلقيه الناس لمجرد التهديد أو الحلف ، فهو لغو وعبث . .

ولم يقتنع الرجل . وأمضى الطلاق وتهدم بيت الزوجية الغاربة على رءوس خمسة أطفال صغار لا أدرى كيف واجهوا المصير . . !

فى ذلك اليوم — يا فضيلة الأستاذ الأكبر — بدالى وربما لأول مرة ، أن العلم والعلماء ، والأزهر والأزهريين يحملون أكثر من غيرهم وزر هذا البيت الذى تهدم ، وبالتالى يحملون أوزار آلاف البيوت التى تتقوض كل عام . . .

وقبل أن أكتب إليك هذا الخطاب قررت أن أعرف :

أولا : عدد النساء المطلقات فى السنوات العشر الأخيرة

ثانيا : عدد القضايا المرفوعة لطلب الطلاق . .

ثالثا : نسبة الطلاق عند المسلمين ، ونسبته بين غيرهم كالأقباط والاسرائيليين فى مصر .

رابعا : نسبة الطلاق بين المتدينين .

خامسا : أثر الطلاق فى التشرد والانحلال .

وحملت أسئلتي هذه إلى وزارة الشئون ، فلم أجد عندها خبرا . .
واستدرت إلى مصلحة الاحصاء والتعداد بوزارة المالية . وهنا أغادر فضيلتكم لحظة واحدة أوجه فيها تحيتى وشكرى إلى الذين عاونونى هناك فى جمع الأرقام التى طلبتها ، وبذلوا جهدا مشكورا ، ثم أعود لأنثر أمام ناظريك الأرقام التى لا تكذب .

أن مجموع المطلقات فى عشر سنوات هو - ٧٧١٨٥٣ -

فإذا افترضنا أن الثلث من هؤلاء النسوة لم ينجبن ، وجعلنا متوسط الانجاب للباقيات طفلين ، لوجدنا أن محصول مصر العزيزة من الأطفال أشباه المشردين يزيد فى هذه السنوات العشر على المليون . . .

ثم أن الأمر لا يقف عند حد هذا الرقم من المطلقات . فقضايا الطلاق المنظورة فى عام واحد بلغت - ١٨٨٢٢٧ - كثيرا ما ينتهى الفصل فى معظمها بالطلاق .

وستسأل يا صاحب الفضيلة ، ويسأل آخرون : ما علاقة الأزهر بهذا الوضع الخطير . .

وأجيبكم : ليس لغير الأزهر علاقة بهذا الوضع الخطير . .

فالعِشرة لا تهون كما يقول الناس . ولكن مشاق الحياة فى بلادنا تستنفد حلم الحليم . ويضيق قومنا ذرعا بمتاعبهم فيفرغونها فى البيوت . .

ولقد جرت عادة أصحاب الطبقة الدنيا والطبقة المتوسطة أن يلوحوا بالطلاق كثيرا فى مشاحناتهم العائلية الكثيرة . . ولقد تعلموا من رجال الدين ومن الأزهر أن مثل هذا اللغو الباطل طلاق نافذ وهم بحكم العادة يسرفون فى استعماله للتهديد وللقسم . فإذا فعلوا لم يملكوا إلا الاذعان

لما سكبته الثقافة الدينية النابعة من الأزهر فى قلوبهم وعقولهم فتتقوض أسر وتنهار بيوت . .

ومن لا يسيغ هذا التفسير فليخبرنا لماذا تبلغ حالات الطلاق عند المسلمين وحدهم عام ١٩٤٩ - ٧٣٣٨١ - حالة .

بينما تنحصر عند غيرهم من أقباط ويهود فى نفس العام فى - ٤٤٦ - حالة . .

قد يكون من أسباب هذا التفاوت مسافة الخلف بين أكثرية المسلمين وأقلية غيرهم .

وإذن نلق سؤالا آخر :

- لماذا تبلغ نسبة الطلاق بين الأزواج المتدينين - ٤٥ ٪ وتقف بين غيرهم عند - ٢٥ ٪ . .

أجل - لقد عثرنا على هذه الظاهرة فى كتاب « الاحصاءات الصحية والحيوية لسنة ١٩٤٩ » :

فالمطلقون من رجال الدين والوعاظ والفقهاء وخدمة المساجد والمأذونين والمتعبدين بنسبة ٤٥ ٪

والمطلقون من طائفة أخرى كالأدباء وعلماء الفلك والطبيعة والاحصائيين والزراعيين والخبراء بنسبة ٢٥ ٪ - فلماذا هذا التفاوت إذن . . ؟

هل الأولون أسوأ خلقا من الآخرين . ؟

لا . ولكنهم أكثر تأثرا بحرفية آراء الفقه الأزهرى المسيطر فى الطلاق . وليس أدل على هذا من أننا نجد كثيرين جدا من العامة

الذين تزل ألسنتهم بكلمة الطلاق يرتدون نادمين ، وينطلقون فى الأرض باحثين عن سبيل للخلاص من المأزق الذى وقعوا فيه . وما هو بمأزق لو كانوا . أو بالأحرى لو كان علماؤهم يعلمون . .

وأن الحرص على استرداد الزوجة المطلقة ليبلغ ببعض الناس اصطناع « محلل » فيأتى برجل غريب من عرض الطريق ليبيت مع مطلقته كيما تكون قد نكحت زوجا غيره فتحل له من جديد . . ! !

لماذا لا يوفر الأزهر على الناس هذا الشقاء فيخبرهم بصورة أكيدة وشاملة أن كل حلف بالطلاق وتهديد به لا يقع طلاقا . وأن الطلاق المشروع والنافذ ، هو ما كان عن وطر ومشيئة وتصميم .

لماذا لا يفعل ذلك فيصون الأسر ، ويحول بين ملايين الأطفال الذين يحرمهم الأزهر بثقـــافته المتخلفة وبين الحرمان من حنان الآباء ورعايتهم . .

ولكن أنى للأزهر أن يفعل ، وهو نفسه فى حاجة إلى من ينقذه من وطأة الطلاق . .

أفتح يا صاحب الفضيلة ، أى كتاب من كتب الفقه المقررة على طلاب المعاهد والكليات . . وضع عينيك على أبواب الطلاق فيها . وانظر ماذا ترى . . .

وإلى أن تفعل ذلك ـ إذا كنت ستفعل ـ دعنى أنقل للقراء بعض النفائس التى أمامى الآن من هذه الكتب . . ولضيق المكان والزمان سنلتقى غدا إن شاء الله .

الخطاب الخامس :

الإمام الفاسق الظالم لا يعزل ؟

قلنا فى خطابنا السالف ياصاحب الفضيلة أن الأزهر يحمل مسئولية فوضى الطلاق وما يترتب على ذلك من تشرد الأبناء وهدم الاسر ، ووعدت فضيلتكم بأن أعرض عليك صورة للطريقة التى تعرض بها كتبنا فى الأزهر مسألة الطلاق ، فلنقرأ الآن قليلا من كثير وكثير .

ـ « من قال لزوجته أنت طالق نصف تطليقة ، أو قال أنت طالق أن شئت ، فقالت : شئت أن شئت . فهل يقع الطلاق أم لا . . ؟ »

ـ « ومن قال لزوجته أن لم تخبريني بعدد حب هذه الرمانة قبل كسرها ، فلم تخبره يقع الطلاق وقيل لا يقع » .

ـ « ومن قال لزوجته أن لم أقتلك فأنت طالق فما الحكم . . ؟ » .

ـ « ولو قال لها أنت طالق نصف طلقتين ـ تقع طلقة واحدة . . ولو قال ثلاثة أنصاف طلقة ، أو نصف طلقة وثلث طلقة : ـ تقع طلقتين . . ولو قال نصف وثلث طلقة ـ تقع طلقة . . ولو قال لأربع نسوة أوقعت عليكن أو بينكن طلقة أو طلقتين أو ثلاثا أو أربعاً ـ وقع على كل طلقة . . ! ! !

إلى هذا الحد تتخذ الكتب الأزهرية وكتب الفقة الإسلامى التى يعتبر الأزهر مسئولا عنها ـ أقول إلى هذا الحد تتخذ هذه الكتب من الطلاق مجالا لشحذ القريحة والابتكار والاختراع .

أليس هذا نفسه تحريضاً على «البجبجة» والاسترسال فى تطليق النساء . . ؟

وبهذه المناسبة أذكر فضيلتكم بطوفان المسائل الفقهية التى لا تصلح ثقافة لعصر الناس هذا . .

أقرأ ياصاحب الفضيلة فى كتاب يدرسه طلاب الكليات الذين هم على وشك التخريج :

ـ « من وضع يده فى أناء الماء وهو جنب ، ولم ينو الاغتراف فإن الماء نفسه يصير جنبا » ! ! !

ـ « ومن كان صائما وابتلع خيطا بالليل وأصبح بعضه داخل جوفه ، وبعضه خارجه ، فإن ترك الخيط لم تصح صلاته لاتصاله بالنجاسة فى جوفه (!) وأن نزعه بطل صومه لأنه ضرب من القيء . . والطريقة إذن أن ينزع الخيط من فمه وهو نائم ، أو يجبره الحاكم على إخراجه فيكون قد أخرجه مكرها » . . ! ! !

ياسكان الكرة الأرضية . . أهذه ثقافة تبنى أمة وتصون دينا . .؟؟

إنها ليست مسألة واحدة مما رأيتم ، ولا مائة ولا ألفا . .إنها أطنان من الورق تحجب الشمس عن سماء القاهرة وتحمل فى الفقه وفى التفسير وفى التوحيد كل هذا الكلام العجيب .

قد يقول ، بعض الناس : هذه افتراضات وأمثلة لا يستغنى العلم عنها حيانا . ونجيب : نعم ، بشرط أن تأتى عابرة ونادرة . أما إذا طغت كثرتها بحيث تصير هى العلم ، فعلى العلم العفاء . .

انى أعلم ـ ياصاحب الفضيلة ـ إن « اينشتاين » وصل إلى نظرية النسبية بواسطة ستة عشر افتراضا ليس لها وجود .

ولكن انظر . .

إن افتراضات « اينشتاين » الوهمية على ضآلتها قد أنجبت نظرية فتحت للعلم آفاقا متراحبة . .

أما افتراضاتنا الطوفانية فإنها تخرب وتدمر ونحن فى غفلة ساهون .!!

وإنك لتعلم ياصاحب الفضيلة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يزجر الذين يسألون عن أشياء لم تقع لهم بعد ، ويقول — « لا تسألوا عما سيكون ، فإن لنا فيما هو كائن شغلا » . .

أيعيش الأزهر والمسلمون معه يتجرعون من آبار ومنابع تحتاج إلى كثير من التطهير . . ؟

هل تتصور ياصاحب الفضيلة ، ولكن قبل الاسترسال فى الحديث دعنى أمسك بزمام أعصابى حتى لا يعصف بها هول النبأ الذى سنلاقيه . .

هل تتصور أن كتاب التوحيد الذى يدرسه طلاب كلية أصول الدين أجل ، اسمها هكذا — أصول الدين — هل تتصور أن هذا الكتاب يقول :

— « . . ولا يجوز عزل الإمام بسبب الفسق والجور » . . ثم يستطرد الشارح قائلا :

— « لا يجوز عزل الإمام بالفسق أى الخروج عن طاعة الله تعالى ، ولا بالجور أى الظلم على عباد الله تعالى » ثم يدلل على صحة هذا وصدقه فيقول : « . . لأنه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين ، وكان السلف ينقادون لهم ويقيمون الجمع والأعياد بأذنهم ، ولا يرون الخروج عليهم » ثم يسوق الشارح خلاف الفقهاء فى هذه المسألة . كأنها أمر يستحق الاختلاف . . ! ! !

والفسوق والظلم كما يقول الأزهر الذى يعلمنا أمور ديننا لا يكفيان للعزل ولا للانتقاض . .

يا بارىء السموات والأرض . . أدركنا . . ! !

ويقول الكتاب أيضاً ياصاحب الفضيلة :

ـ « . . ويشترط فى الإمام أن يكون قرشياً أى يكون من قريش ولا تصح أمامة رجل من غير قريش . .

تصور شعباً كشعب مصر يؤمن بهذا الكلام ، فأى ولاء لدولته ولحكامه مهما يكونوا صالحين ينتظر منه .

وتصور لو أن سكان هذا الكوكب اعتنقوا الإسلام . فإن الأزهر سيخلق لنا إشكالا عظيما ـ (! !)

فالنكوف ، وأيزنهاور ، وماوتسى تونج ، والبزابث . كل هؤلاء ليسوا من قريش ، وإذن فعلى الرغم من أسلامهم لا بد من عزلهم والاتصال بالحجاز أو اليمن السعيد لكى يختارا من دفتر المواليد أربعة ـ أى أربعة ـ من قريش ، فننصبهم أئمة لتلك البلاد حتى يرضى الأزهر ، وترضى كتبه وثقافته . . ! ! !

ويتحدث كتاب التوحيد الذى يدرسه من سيصيرون للناس وعاظاً وهداة وأئمة . يتحدث عن الكرامات فيقول :

ـ « الكرامات حق والإيمان بها واجب . وهى مثل المشى على الماء . . والمشى على الهواء » . . ! !

صحيح أن الكرامة حق ، ولكن هل صحيح أن من الواجب على كمسلم الايمان بالمشى على الماء ، وعلى الهواء . . ؟ ؟

ويتحدث عن الله ليعرفنا به فيقول :

ـ « . . هل الله مريد بذاته ، أم بصفته ، أم بأرادة حادثة لا فى محل، أم بأرادة حادثة فى ذاته » . . ؟ ! !

ذلك أن الله الذى تحدثت عنه كتب الأزهر ومؤلفاته ، ليس هو الاله الحق . . الذى عبر عنه الرسول فى بساطة وصدق حين سئل :

ـ كيف رأيت ربك يارسول الله ـ ؟

فأجاب : نور . . أنى أراه ! ! !

إن الأزهر ليس مسئولا عن كتبه فحسب . بل هو مسئول عن الثقافة الإسلامية جميعها .

ولو كنت ممن ينكرون الأزهر ويغمطونه حقه ما وضعته فى هذه المنزلة الرفيعة . ولكن لست أنا الذى أضعه . إنما هو دوره التاريخى العتيد يؤهله اليوم وغداً ليكون المشرف الأعلى على الثقافة الإسلامية فى كل مكان . . فهل أدى الأزهر واجبه أزاء هذه الثقافة . . ؟

وفى كثير من كتب التفسير والحديث والفقه ، نجد ياصاحب الفضيلة تحريمات أكيدة لأشياء ليست من ضرورات الحياة فحسب . بل ومن مقومات الإنسانية أيضاً . . من ذلك ، الفن . .

ونضرب للفن مثلا بالموسيقى والغناء . ليس على ظهر الأرض كتاب أزهرى أو دينى إلا ويحرمها خلا القليل النادر . .

فهل صحيح أن رسول الله عليه السلام قال : « يمسخ أناس من أمتى فى آخر الزمان قردة وخنازير . ثم سبب هذا بأنهم يصغون للموسيقى والغناء . . ؟

إننى شخصيا درست هذا فى الأزهر ، ولن تجد كتابا من كتب الفقه والأزهر يقول غير هذا .

ياسبحان الله . ! الموسيقى التى ترفع الروح إلى الملأ الأعلى درجات تمسخ الناس قردة وخنازير ؟ !

إذن ، فما رأى صاحب الفضيلة فى أنه منذ ليال قلائل ، احتشد ثلاثة ألاف لرؤية أم كلثوم ، وجلس إلى المذياع فى المنازل والأندية مالا يقل عن خمسة ملايين هنا وفى البلاد المجاورة . . ووقفت أم كلثوم تتلألأ كمعجزة لم يكفر بها أحد . . (!)

وغنت ثم غنت وأسعدت القلوب المجدبة من السعادة وحتى الآن لم يتقدم إلى البوليس ولا إلى المستشفى رجل واحد من الذين سمعوها بأعينهم ، ولا من الذين سمعوها من وراء حجاب . .

ـ لم يتقدم من هؤلاء رجل واحد تحول إلى قرد أو خنزير . . !!!

فهل تستطيع يا فضيلة الشيخ أن تنقذ الإسلام والأمة والأزهر . ؟

الخطاب السادس :

اغرس مكان الأعشاب . . أزاهير . .

إن مما أحفظ عن رسول الله عليه السلام قوله ياصاحب الفضيلة :
« إن الله جميل ، يحب الجمال ، نظيف ، يحب النظافة ، ولن يدخل الجنة إلا نظيف » .

وأكاد أبصره وأسمعه . . ، يوم وقف مستقبلا أصحابه كالبشرى يعظهم ويهديهم فيقول :
« كلوا أطيب الطعام ، والبسوا أجمل الثياب ، وانتعلوا أحسن النعال ، وكونوا فى الناس كأنكم شامة » .

كانت هذه الأحاديث ونظائرها تتمثل لى ضوءاً يلتمع وسط كتل من الأساطير كقطع الليل البهيم ، تدعو إلى الضد وإلى النقيض .

والحق أننى عندما واجهت هذه الأضواء لأول مرة منذ سنوات وفرحت بها ، لم يكن مفهومها يجاوز فى وعيي الغرض الشكلى ، أو المدلول الحرفى ، بمعنى أنها مجرد دعوة للإنسان كى يبدو دائماً فى سمت جميل ومظهر أنيق حتى التقيت ذات يوم بالعالم النفسانى العظيم « ادلر » فى بعض المؤلفات التى تتحدث عنه ، فدارت خواطرى على أحاديث الرسول من جديد ووعيت لها مفاهيم أخرى ثرة متراحبة .

ذلك أن رجلا يشكو فوضى الشخصية وظلامها وانحلالها ، زار « ادلر » ذات يوم ليستفتيه فى علته . . وسأله « ادلر » كيف يعيش ، وماذا يقرأ . . ؟

وبعد أن استمع له طويلا تناول جذاذة من الورق وكتب عليها : « نظم بيتك . . تنتظم شخصيتك » ، وكثيراً ما كان يكتب لأشباه هذا من المرضى . . « رتبوا بيوتكم » .

عندئذ فهمت الذى كان يعنيه الرسول عليه السلام ، أو لعله كان يعنيه بأشادته بالجمال ودعوته إلى الأخذ بأسبابه ، فالمشاهد الجميلة تمكننا من مستويات عالية ، وتهبنا حوافز شريفة .

والأرواح الذكية تطرب لرؤية الجمال ويزداد ثراؤها الخلق بالشخوص إلى الحسن .

أن أفضل ما تزجيه للأزهر الحديث ـ ياصاحب الفضيلة ـ أن تملأه بخير الأمور ، وأفضل الأشياء ، فأيلاف المعانى السامية العظيمه لايتاح إلا للذين يتعودون رؤيتها فى المحسوسات التى تحيط بهم وتعيش معهم .

وفضيلتكم تعلمون أن الفارق بين المتوحشين والمتحضرين ، ليس فى تركيبهم العضوى ولا فى بنائهم العقلى ، بل فى المحسوسات التى يأخذ كلا الفريقين من ملاحظتها مادة العقل ومادة التفكير ، فلكى يتاح لعقولنا أن تستشرف عالم الحقيقة ، ولأرواحنا أن تبصر رؤى الرفعة والعظمة ، يجب أن نحوط أنفسنا بكل ما هو عظيم ورفيع .

من أجل هذا جئت اليوم أدعوك باسم الواجب الذى يلقيه على كاهلك أبوتك لتسعة عشر ألفاً من الأزهريين أن تحوط حياتهم التعسة بكل مشاهد الجمال والسمو والرخاء .

أنا أعلم انه لاذنب لك فى اختيار المقابر مكانا للمدينة الجامعية

الأزهرية ، فالذين اختاروا هذا المكان، ونبشوا القبور ليشيدوا مكانها مدينة الأزهر (! !) قوم آخرون ـ عفا الله عنهم ـ . .

واعلم أيضاً انه لاطاقة لك فى دفع مشاق الحياة وشظف العيش عن أبنائك . . لأن المشقة والشظف مشكلة عامة يحاول المسئولون ـ وفقهم الله ـ أن يجدوا لها الحلول والسبل .

وعلى أية حال ، فلست أعنى بالجمال الذى أريد للأزهر أن يعيش فى مباهجه ، جمال الملبس ولا جمال المثوى لحظه منهما اليوم غير قليل وأن كنت أطمع له من عناية الدولة فيما يمكنه من المزيد .

ولكننى أريد جمال الأزهر نفسه ، جمال ثقافته . . وجمال تقاليده . . وجمال أهدافه ووسائله .

أجل : ياصاحب الفضيلة ، أعط الطالب كتاباً جميلا . . يعالج موضوعاً جميلا . . . . ويهدى إلى غرض جميل . . فسيتحول الطالب نفسه إلى نموذج إنسانى جميل .

وليس إلى هذا من سبيل إلا بإعادة النظر فى مناهج الأزهر جميعاً . . بل وإعادة النظر فى أمر المؤلفات التى تحمل للناس ثقافة إسلامية محرفة مظلمة لاتصلح أمر الدنيا ، ولا تذيع حقائق الدين . . إننا لانزال ـ ياصاحب الفضيلة ـ نقرأ بين الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله احاديث يعتبر الأبقاء على نسبتها للرسول عليه السلام جريمة ووزرا ، فكيف ، وهذه الأحاديث توسم بالصحة والقوة ؟

كيف يترك الأزهر الناس يؤمنون بأن الرسول قال : « استمع لأميرك وأطعه ، وأن جلد ظهرك وأخذ مالك » ؟

وكيف يتركهم يؤمنون بأن الرسول المتفائل دائماً ، المستبشر أبداً

يقول : « مامن يوم يمضى إلا والذى بعده شر منه » . .؟؟!

أمحمد من يدعو لهذا التشاؤم ، ويشيع هذه الروح الانهزامية فى الحياة؟

أقسم أنه برىء . . ولكن الأزهر لا يريد أن يفعل من أجل إنقاذ سمعة الإسلام ، وسمعة نفسه ، ومن أجل إنقاذ عقول أبنائه وعقول الناس شيئا .

وبهذه المناسبة أود أن أسأل فضيلتكم سؤالا :

ـ لماذا لا تدرس بالأزهر كتب ابن تيمية ، وابن القيم ، مع أنها فى مجموعها تمثل أوضأ صورة للتفكير الإسلامى السديد والرشيد .

وأنا أقول ـ فى مجموعها ـ لأحتفظ بحقى فى معارضة بعض آرائهما .

أن مناهج الأزهر هى المنبع الذى يرتوى بمائه الأزهريون والمسلمون ، ومن ثم فهى فى حاجة أكيدة إلى تجديدها وعرضها من جديد .

ولكى يستطيع الأزهر أن يخفف من أعباء مسئوليته تجاه ذلك الأمر .

ولكى تستطيع أيضا يا صاحب الفضيلة أن تفعل ، أعرض بعض المقترحات التى لا أراها أكثر من مثال يمكن أن يحتذى ، أو بنان تشير إلى الطريق .

أولا : تكوين لجان ـ فورا ـ تعكف على مراجعة جميع مناهج وكتب التعليم بالأزهر . . واحدة لمراجعة التوحيد ، وأخرى لمراجعة الفقه وثالثة لمراجعة كتب الحديث : لذا . . وهكذا

ثانيا : تكوين لجان لمراجعة جميع الكتب الدينية المعروضة للثقافة العامة من تفسير وتصوف وسيرة وإعداد قائمة بما لا يتفق منها مع العقل الإنسانى ولامع الفكر الإسلامى تمهيدا للبحث عن أجدى الوسائل لإماطة أذاها عن الناس .

ثالثا : تكوين لجنة تضع مؤلفا جديدا يحتوى على خطب جديدة للجمعة تذيع فى ملايين المصلين ثقافة أخرى ، وتكشف لهم النقاب عن الخرافات الدينية وترفع كثيرا من آصار التحريم والحظر الذى يؤود العباد ويؤخر البلاد ، ثم قدم هذه الخطب هدية لوزارة الأوقاف ما دامت هى لا تريد أن تفعل هذا ...

رابعا : اجعل « فن الحياة » على رأس المواد التى يدرسها الأزهريون . أجل ـ افتح أبواب الأزهر الضخمة الواسعة ، افتحها للحياة ولفنونها جميعا . علم الأزهريين الموسيقى وعلمهم فى سخاء أكثر علوم النفس والاجتماع وتطور التاريخ وثقافة الجنس . . ادمجهم فى موكب الحياة بكل وسيلة نظرية وعملية . . انقل « ابن الجهم » من خيام البادية إلى قصور الرصافة ، لينسى الكلب والتيس والدلو ، ويفوح منه أريج القول المعجز والجمال المعجز ،، ويسعد ،، ويسعد معه الآخرون .

أجل ـ اغرس مكان الأعشاب أزاهير .

خامسا : تكوين لجان لتأليف كتب جديدة لمناهج التعليم بالأزهر ، ولكن احذر « المرتزقة » الذين كل همهم أن يظفروا بمكافآت لا يستحقونها ثم يسطون على نفس الكتب القديمة ويصنعون كالخمار الذى يسكب النبيذ القديم فى قوارير جديدة .

لا بد من مؤلفات جديدة لطلابك تضع الحقيقة مكان الخرافة ، والمعرفة بديل السفسطة . . وتمتاز بالانسياب والجزالة مع دقة الأداء .

سادسا : تكوين لجنة للنظر فى دراسة الفقه الإسلامى ككل واحد ، مصدره الكتاب والسنة ، لا كمذاهب أربعة تزأر فى دروبها ريح الخلاف ،

أنك لتعلم ـ يا صاحب الفضيلة ـ أن الأئمة الأربعة رددوا جميعا هذه العبارة المأثورة لأتباعهم « لا تقلدونا ، فإنما هو رأى رأيناه فى دين الله فأن يك هدى فذلك خير ، وأن يك غير هذا لم نحمل أوزاركم معنا » .

ولقد مضى الإسلام فى عصره المجيد ، ولم يكن معه سوى الكتاب والسنة ، وليس ذلك إلغاء للمذاهب الأربعة فهى نتاج فكرى لا سبيل لإجلائه عن مكانه الخالد فى التاريخ ، ولكنها فقط محاولة أحسبها ناجحة لخلق عقلية إسلامية أو على الأقل عقلية أزهرية جديدة لها شخصية موحدة لا موزعة ، بل يبدو لى أن هذا العمل ضرورى فى المرحلة الأولى لبناء الأزهر الحديث ، فما لا ريب فيه أن تنوع المذاهب والمدارس الفقهية مسئول إلى حد غير قليل عن المنافسة المبهظة التى أنتجت ذلك التراث بل الركام الذى نشكو منه والذى عرضنا بعض الشواهد عليه .

فلتكن دراسة المذاهب الأربعة أو بعضها من مناهج تخصص المادة لإنشاء الرسالات ودعم الدراسات الخاصة ، أما الأزهر من السنة الأولى الابتدائية إلى الشهادة العالية ، فينبغى أن يدرس الفقه الإسلامى فقط ، لا الحنبلى ولا الشافعى ولا الحنفى ولا المالكى ، فقه إسلامى يقوم على مصادر التشريع وعلى المنهج المشترك لاجتهاد الأئمة الأربعة أيضا .

وبعد يا صاحب الفضيلة ، فقد حان الوقت لكى يذهب كل منا إلى سبيله ، وأنها لأوقات سعيدة مباركة تلك التى قضيتها فى الحديث إليك ، ولست أدرى هل كنت مقبلا على الحديث أم كنت معرضا عنه ..

إذا فعلت ما ينتظره الأزهر منك فستكون مثوبتك الكبرى أنك فعلت .. وإذا لم تفعل ، فحسبك جزاء أنك لم تفعل .. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

آراء معارضة ..

أثناء نشر الخطابات السالفة ، وبعد الفراغ منها ، تلقى الكاتب ، حشداً هائلا من التعليقات . بعضها يحبذ ويؤيد ، وبعضها يعارض ويناهض . وطبيعي أننا سنكتفي هنا بنشر الرأى المعارض وحده .

وطبيعي كذلك ، أننا لن نتمكن من نشر كافة الكلمات التي وصلتنا ، والتي نشرتها جريدة « الجمهورية » يومئذ . ولكننا سنكتفي منها بما تتسع له هذه الصفحات المحدودة .

بيد أننا راعينا فى اختيارها أن تكون ممثلة لجميع وجهات النظر التي أثيرت حول الموضوع .

ولا نريد ونحن نثبت هنا ـ مختارين ـ آراء الذين عارضونا . بل وشتمونا أحيانا . . أن نمن على حرية الفكر بهذا الصنيع .

فالحرية ، هي التي تمن علينا أن ألقت فى وعينا من سناها المضيء ما جعلنا ندرك قيمة الرأى المخالف ، وجلال الدور الذى يقوم به من يقول « لا » عن بصيرة وإخلاص .

* * *

والآن ، إلى الذين قالوا « لا » لنصغى إليهم فى حفاوة وتقدير .

(١)

كتب فضيلة السيد « محمد أمين إسلامى التركستانى » إمام جامع طوكيو ، ورئيس الجالية الإسلامية بها سابقاً ، تحت عنوان :

إلى صاحب الخطابات المفتوحة ..

. . . إن الأزهر من أقدم المعاهد الإسلامية لا ينافسه معهد فى عظم شأنه وخطورة رسالته . وقد اصطفى الله له مصر مقاما كريما . . فهى منبع الحضارات الشرقية . وقد منت مصر به على العالمين العربى والإسلامى فكانت بذلك قبلة الرواد وكعبة القصاد من كل فج عميق .

ومجرد نظرة إلى الآثار الخالدة والخدمات الجليلة التى خلدها الأزهر تجعل من كل إنسان منصف شكوراً له ومقدراً إياه ومتمنياً له كل الخير .

. . . وأن الفقهاء رحمهم الله تركوا ثروة علمية قوبلت بالتقدير والإعجاب من جهابذة الباحثين وأعلام الجامعات الكبرى . وسعة نطاق الحوادث يجعلها فى متناول الحاجة . فكم كنت تسخر من الواضع لو وجدت فى كتب الفقه المسألة الآتية . وهى : «هل يثبت الرضاع وتقع الفرقة لو رضع الزوج زوجته ؟ . . » فلقد حدث وأنا بتركستان عند بعض أساتذتى أن جاء رجل وقال وهو يتصبب عرقا من الحياء : كنت أداعب زوجتى ومن فرط حبى رضعتها وهى حامل ، فهل يثبت الرضاع وتحرم زوجتى ؟ فأجاب أستاذى بالنفى .

وكم ثمة من الحوادث ما لا يحصيها العد ومن الناس من يتقى الله ويخشاه ثم لا يرى عيباً أن يكاشف أهل العلم بكل صغيرة أو كبيرة

يريد أن يعرف حكم الله فيها .

وقد نجئت بعدة مسائل لتضحك وتضحك الآخرين معك ، الأمر الذى يفقد الناس ثقتهم بمعتقداتهم ويتسبب فى نبذ علمائهم ، وقد حدث ذلك فعلا . فقد رأينا كاتبة تصرح فى مقالها بأن الوعاظ والمرشدين يتخبطون فى رواياتهم بأحاديث متناقضة وتناولت أحاديث ليلة القدر وبعض أحاديث الترهيب ، مع أن هذه الأحاديث ليس بينها تناقض ولا غرابة لمن يفكر أقل تفكير . والله وحده يعلم كم مقدار الضحايا ممن أطاحت بهم أو بهن مقالاتك وهوت بهم فى مهاوى الضلال . . . ، لعجزهم عن الموازنة وهم يجـــدون من مقالك أقوى نصير لما يبثه أعداء الإسلام من الشائعات . ويزيد الطين بلة أنهم يرون أستسلام بعض الضعفاء وسكوت المسئولين المستمر . ولو اقترحت تجريد الكتب الدراسية عن المسائل التى يندر وقوعها وحصرها فى المسائل المتكررة حدوثها مع حفظ المؤلفات الفقهية بكل اعتناء لتكون مراجع عند الحاجة ولتوسع دائرة الاطلاع لكنت جديراً بأن تحمد على اقتراحك .

. . . لقد أخذ منى العجب مأخذه من تهجمك العنيف وسخريتك بالعلماء لأنهم يحسون كأى بشر مثلهم بما يجرى حولهم ، وكأنك تريد أن تجعل من حياة العلماء متاحف ، وتريدهم أن يبتعدوا عن الدنيا التى يعيشون فيها ، والحال أنه فى الإسلام لا يوجد رجل الدين ورجل الدنيا .

وعجيب أن تكتب فيما تكتب .. « لقد كان آخر عجائب هذه المهزلة أن شيخاً يقول أن الشعب الروسى شقى وتعس . . اخ » ، وتسأل :

لصالح من هذا الشيخ يتخبط ؟ ثم تطيل فى بحثك وتعرج على فاتيكان وعلى غير ذلك .

لصالح من ياحضرة الكاتب تتجنى إلى هذا الحد وتغضب من ذلك التصريح الذى أصدره الشيخ المذكور ، وهو فى الواقع لا يعبر إلا عن جزء من ألوف الحقائق بالنسبة إلى ما تعانيه الشعوب المستعبدة التى تئن تحت براثن الشيوعية . كما أسألك : أى بلد زرت من البلاد التى تقع فيما وراء الستار الحديدى حتى تدافع عنها ؟.. فإن كثيرين فى بلاد الشيوعية هائمين على وجوههم تاركين ديارهم وأرضهم وأموالهم .

وإن كنت تريد معرفة الحقائق فاسأل مئات الألوف الذين فروا من الحكم الشيوعى .

وأختتم مقالى سائلا الله أن يهدينا جميعاً سبيل الحق ، وأن يحفظ مصر والأزهر للإسلام ويحقق ما تصبو إليه آمال المسلمين . .

(٢)

وكتب فضيلة الأستاذ الشيخ « الطيب حسن النجار » عضو جماعة كبار العلماء ، والأستاذ بكلية أصول الدين . تحت عنوان :

الأزهر يمشى إلى غايته . .

... إن رسالة الأزهر خارج مصر تتمثل فى تبليغ الدعوة الإسلامية إلى أمم الأرض جميعاً ، وأن القيام بذلك يحتاج إلى قوة دافعة وإمكانيات خاصة واستعداد كامل من الحكومات القائمة لا فى مصر فحسب بل فى سائر الدول الأخرى . . ولقد خطا الأزهر فى هذا السبيل بعض الخطوات

الإيجابية فأرسل مبعوثيه إلى كثير من الأقطار الإسلامية ليؤدوا رسالة العلم والدين ، وقد أثمرت جهودهم ثمرات طيبة جعلت أصحاب الرأى في تلك البلاد يعتزون بالأزهر ورجاله . ويطلبون مضاعفة المبعوثين منه لتحقيق الأمل المنشود ، والأزهر - بحمد الله - يحاول أن يسرع الخطا ويضاعف العزيمة . ونرجو أن يوفق الله القائمين بالأمر لتحقيق هذه الغاية الكريمة . . .

وإذن فالأزهر ليس في نوم عميق عن أداء رسالته ، وإنما الأزهر يمشى إلى غايته الكريمة فى حدود إمكانياته ، وهو أن قصر فى مجال التأليف العلمى قليلا فعذره واضح وحجته قائمة . وإنه على الرغم من ذلك ليهيء نفسه إلى الوثبة الكبرى والنهضة الرائعة حتى يصير فى القافلة هو الطليعة ، وليس ذلك بعزيز متى توفر الإخلاص من أبنائه واتجهوا بعين العناية إلى معهدهم الجليل . . .

. . . وتبقى بعد ذلك كلمة أخيرة أثارها هؤلاء الناقدون للأزهر ، تلك هى ما يصفونه من علاج للحالة المؤلمة التى يعانيها الأزهر ، حتى « يبرأ من أدوائه » فيقولون بتوحيد التعليم إلى نهاية المرحلة الثانوية وإدماج المعاهد الدينية فى المدارس المدنية ، ثم يتخصص الطالب بعد ذلك فى الكليات الجامعية . على أن يكون الأزهر كلية دينيه تدرس فيها بتوسع علوم الشريعة الإسلامية .. وهذا المنطق ربما يغرى بعض الناس ويخدعهم ولكن الحق وراء ذلك . فالطالب الذى ينتهى من المرحلة الثانوية العامة لا يمكن أن يتحمل مواجهة العلوم الأزهرية العميقة كالتفسير والحديث والفقه والأصول والتوحيد إلى غير ذلك ، لا يمكن

أن يواجهها بالطاقة الذهنية المناسبة أو يندمج فى تيارها القوى ، وحينئذ تضيع الثمرة المرجوة ، ويذهب بالتدريج تراثنا الإسلامى الخالد ، ونخرب بيوتنا بأيدينا تحت ستار خادع من النهضة والإصلاح .. ألا أن الحق واضح لا ريب فيه ، فلاداعى للأخذ والرد فيما لا يجدى ولا يفيد ، وإن أولى الأمر فى الأمة لفى حاجة ماسة إلى كل وقتهم لعلاج المشاكل الخطيرة التى خلفتها العهود الماضية ، فلا تضيعوا عليهم دقيقة واحدة فى جدل لا ينفع ولا يشفع ، ولا تفتحوا باب الخلاف والشقاق بعد أن أغلقته يد العناية .

(٣)

وكتب السيد « يس حسن إبراهيم » تحت عنوان :

لا .. يا صاحب الخطابات المفتوحة ..

... يقول الأستاذ فى إحدى رسائله أن الأزهر هو سبب فوضى الطلاق وما يترتب عليه من تشرد الأبناء وهدم الأسر - ولست أدرى هل يقصد أن يفتى الأزهر ويدرس غير ماجاء فى صريح الكتاب والسنة ؟ أن تقييد الطلاق وتقييد الزواج بحجة ما طرأ فى أحوال المعيشة وفى أحوال البشر ، أن أصلح فى نظر الكاتب وجهة فأنه سيضر بوجهات .

إذا قيدنا الطلاق وتعدد الزواج بإذن حتى تستبين المبيحات والمبررات فهل يعلم أستاذنا الحصيف أنه لم يخلق بعد القاضى أو الوالى الذى يستطيع أن يستشف حقائق النفوس ونوازعها ، وهلا يوافقنى سيادته على أن

القاضى المستنير قد يخفق فى تكييف نوازع أهل بيته أنفسهم من بنيه وزوجه على ما أتيح له من الخلطة ودوام الرقابة . فكيف يقضى بين الناس فى نوازعهم .

هلا يعلم السيد الكاتب أنه قد تتوفر كل وسائل الهناء لزوجين ولكنهما لغير سبب مادى أو جسمانى يتباغضان أو يغضى وينفر أحدهما وهل سمع بخبر البدوية الفقيرة مع زوجها السيد الأمير كيف كرهت العيش معه والإقامة عنده وهل كان يلزم هذا الأمير قبل أن يسرحها ويعيدها إلى فلاة قبيلتها أن يلتمس لذلك إذنا يبرره من القاضى — وهل علم الكاتب قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى معرض عيشه مع أزواجه (رب هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك ميل القلب) . . فكيف نخضع ميل النفوس ونوازعها لموازين وقواعد نفرض على القاضى أن يستجليها وهو فاقدها فى خاصة نفسه .

هذا إلى ما يفضحه هذا الاستئذان من دخائل الناس ومستور أمرهم . وضرر هذا هو الذى يؤدى حقا بكيان الأسر بل قد يلحق بها وصمات لا تمحوها الأيام . فأين هذا من ضرر فوضى الطلاق التى بنى عليها الكاتب مقالته .

وأتى الكاتب بأمثلة يظن أنها تزرى بكتب الفقه فى مسائل الطلاق وغيره — على أن عين المنصف لا ترى هزءا فى ذلك فماذا لو أظهرنا طالب العلم على فنون القول وقد بنى المشرع الطلاق على المقال ؟ وأبنا له فروضا توسع من مداركه وقد تعرض فى ثنايا مشاكل هذه الحياة المعقدة ؟ وهل كل ما ورد بكتب الرياضة والعلوم بالمدارس غير الأزهرية

التى لم يتعرض لها بنقد ، يمس صميم الحياة والنفع المباشر ، أم فيها صور أقرب إلى الأحاجى والألغاز لتربى ملكة الاستنتاج ولتعمق فى ذهن الطالب القاعدة الأصلية .

وأى عجب فى الصورة التى أبرزها الكاتب فى قول من قال لزوجته « أن لم أقتلك فأنت طالق » أليس يجوز أن يقولها قائل وأين الغموض فى الحكمة الذى يثير عجب الكاتب ـ فهو أن قتل كان قاتلا وأن لم يقتل كان مطلقا إذا كان جادا .

ولعمرى كيف يفضى التوسع فى إيراد مثل هذه المسائل والصور بكتب الفقه إلى التحريض والاسترسال فى تطليق النساء ، كما أورد الكاتب ـ وهل الطلاق دوافعه صور الألفاظ أم حقائق الحياة .

ومسألة الصائم الذى ابتلع بالليل خيطا إلا جزءا .. ما أملحها من دعابة وكنا نحب أن نتعلم على يد الأستاذ حكمه هو فى ذلك للمسلم من سخرية الناس ـ هل إذا كان هذا الخيط الواصل من طعام مثلا وابتلعه فى نهار الصوم هل يعتبره سيادته صائما أم إذا قاءه يراه أسلم لصومه . وما ضر لو علم من تعمق هذه الصور ولو كانت نادرة الحدوث .

. . . وأما فى اشتراط أن يكون الأمام قرشيا فيا ليت كاتبنا قد أنصف نفسه وأنصفنا فأدرك متى قيل هذا القول ليعلم أنه حق فهل كان يريد فى صدر الإسلام أن تولى الأمامة ورعاية شئون الإسلام إلى أهل البلاد المفتوحة وهم حديثو عهد بهذا الدين .

وأحب أن أطمئن الكاتب كذلك فأقول له إذا اعتنق مالينكوف وايزنهاور واليزابث الإسلام فقد وجب آنئذ عزلهم لعدم صلاحيتهم

لأمامة المسلمين إذ كيف يجمعون بين عشية وضحاها شروط الرعاية والأمامة .؟؟!!

(٤)

وكتب فضيلة الأستاذ « عبد الرحيم فوده » الأستاذ بمعهد القاهرة تحت عنوان :

نحو فرنسى ، وفقه ماركسى ، وبلاغة انجليزية !!

فهم بعض الناس ـ خطأ ـ أن الشرق لن ينهض ـ ليهز الدنيا ويوجه اهتمام التاريخ ـ إلا إذا نهج منهج أوربا فى نهضتها الحديثة . واحتدم فيه الصراع بين رجال الدين ورجال الدنيا ، أو بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهذا الفهم الخاطىء إذا لم يكن دسيسة استعمارية انطلت على كثيرين ، فهو نتيجة الجهل بطبيعة الإسلام . وحقيقة رسالته .

. . . فالأزهر ـ رضى بعض الناس أو كرهوا ـ قام ألف عام على حراسة اللغة والدين . وحفظ للشرق ـ بالقدر الذى اتسعت له طاقته ـ مقوماته وقوميته ، وليس فى مصر أو فى أى بلد عربى من ينكر هذه الحقيقة الظاهرة السافرة ، بل ليس من هؤلاء المتجنين عليه وعلى رسالته من يكتب لمصر والعرب بغير مداده أو ينطق بغير لغته ولن أذكر اسم واحد من هؤلاء . فكلهم شيوخ . أو تلاميذ لشيوخ دفع بهم الأزهر بعيداً إلى الخارج وقريباً إلى دار العلوم . ثم عادوا يقذفونه بالأحجار ويقذفهم بالثمار

... وإن الاستعمار ليرى فى الأزهر مقوماً من مقومات القومية العتيدة الصلبة التى لا تلين .. لا بهذه المآذن التى تمتد إلى السماء فوق ضريح جوهر الصقلى .. وإنما بالثقافة الإسلامية العربية التى تجمع عشرات الملايين - بل مئاتهم - على وحدة الشعور والتفكير والهدف . فإذا كان قد شاب التعليم بالأزهر فى بعض الفترات الجمود والعقم . فقد كان جمود المعتز بذخائره ومفاخره وقوميته . ولعل هذه الحقيقة هى التى حملت كرومر على أن يعلن فى مرارة وحقد أنه غير كل شيء فى مصر إلا الأزهر . ومع ذلك هل ينكر أى إنسان أن أبناء الأزهر من أمثال رفاعة الطهطاوى وغيره ، هم الذين حملوا إلى مصر خير ما فى حضارة أوروبا ، وأنهم الذين قامت على كواهلهم النهضة العلمية الحديثة .. ؟

ولست أنساق إلى مسايرة هؤلاء النافخين فى الأبواق فأزعم أن رسالة الأزهر يجب أن تتسع وتتسع حتى تستوعب إنشاء معاهد للموسيقى والتمثيل . ومعامل للتحاليل الطبية ومصانع لإنتاج الأسلحة . فنحن فى زمن التخصص . وتقسيم العمل . وهذه الظاهرة تحكم العالم وتوجه نشاطه الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ، ووظيفة الأزهر التى اضطلع ولا يزال يضطلع بها هى المحافظة على لغة الأمة ودينها وتراثها الفكرى .. فإذا كان فى الماضى يحتكر التعليم بجميع ألوانه فهو فى الحاضر - إذا كنا حقيقة نساير التطور - يجب أن ينهض بهذه الوظيفة وما أكبرها وأخطرها . وليس يتصل بها نحو فرنسى أو أدب انجليزى .

إننى آخذ على الصديق الفاضل الأستاذ خالد محمد خالد أن يأخذ الأزهر بجرائر بعض الأزهريين وأن يسوق لقرائه بضاعة مزجاة من الفقه العفن والآراء الغثة . ويغفل أو يهمل ما فى الفقة الإسلامى من كنوز وذخائر . مع أن رجال القانون من كل دين وملة أشادوا بما ترك الفقهاء المسلمون من تراث . واقتبسوا منه . وتأثروا به وأعلنوا ذلك مراراً وتكراراً فى عدة مؤتمرات دولية انعقدت فى أوربا وغيرها .

شىء واحد أحب ـ ليرضى الأستاذ خالد ـ أن يدخل الأزهر ويصهر فى بوتقة دراسته . وهو الاقتصاد السياسى وما يتصل به. أو يدخل فى صميم تكوينه من نظريات التجاريين والطبيعيين وآراء كارل ماركس وآدم سميث . وملتس الخ .

ولكنى حين أرحب بهذه البضاعة الأجنبية وأرى ضرورة فهمها وهضمها أثق كل الثقة فى أنها لن تقف على قدميها إذا عرضت فى ظل المنافسة الحرة مع بضاعتنا المطمورة المغمورة التى شاء الأستاذ خالد يدعها فى مناجمها بالكتب الصفراء..ويعرض بدلها «قربة فساء».!!

(٥)

وكتب الأستاذ « جلال زكى » تحت عنوان :

لا تكن لوثر ..!

... كتب الأستاذ خالد محمد خالد فى سلسلة خطاباته المفتوحة إلى شيخ الأزهر خطابا بعنوان « كن لوثر ... وابدأ من جديد » ... ورداً على ذلك أقول لشيخ الأزهر « لا تكن لوثر ... لكن

ابدأ من جديد » . . .

نعم يا سيدى . . . لا تكن لوثر ، ولا تكن لوثريا فى إصلاحك ؛ فالأستاذ خالد بدعوته هذه يدعوك للهدم . . . وليس للإصلاح .

. . . وأنا أحب أن أسأل الأستاذ خالد : هل نجت المسيحية على يد مارتن لوثر ؟ . .

صحيح أنقذ مارتن لوثر الكاثوليكية من ضلالات البابا وية وانحراف البابوات . . . وصحيح أن البابوات انصرفوا عن الرسالة الحقيقية للكنيسة إلى الأمور الزمنية . . . وكان واجبا على المصلحين أن ينقذوا البابوية مما تردت فيه من مساوىء . . . وظهر لوثر كما ظهر غيره على مسرح الإصلاح الدينى مثل ارزمس وسافونا رولا المصلح الاجتماعى الثائر على البابوات . . . فقد كان يدعو إلى التحلى بالفضائل والرجوع إلى تعاليم الكنيسة الحقة ، كما دعى ارزمس إلى إصلاح الكنيسة والمسيحية إصلاحا تحت سقف الكنيسة . . . لا كما فعل لوثر . . . .

فبدلا من محاربته لمن انحرفوا عن تعاليم الكنيسة . . . حارب تعاليم الكنيسة نفسها . . . وهنا ـ يا أستاذ خالد ـ انقسمت المسيحية فى الغرب ـ ولم تنج ـ إلى مسيحية كاثوليكية ومسيحية محتجة ـ لوثرية برتستنتية يتزعمها لوثر . . . وابتدأت دعوته تنتشر فى الشرق والغرب ولنا أن نترك أسباب انتشارها ، فهذا موضوع له أسبابه ومكوناته التاريخية . . .

فلوثر إذن انحرف عن الاصلاح بعد أن ابتدأ الاصلاح . . . ولذلك فلا أريد ـ مخلصا ـ لشيخ الأزهر أن يكون لوثريا فى إصلاحه . . .

كفى الله الإسلام شر لوثر . . ولوثريته !

مناقشة المعارضين

بعد نشر الآراء المعارضة ، التي طالع القارئ بعضها على الصفحات السالفة ، نشر الكاتب ثلاث مقالات . ناقش فيها منطق معارضيه . وألقى مزيداً من الضوء على الموضوع . .

نشرت في جريدة الجمهورية ، بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٥٤

مرحبا بكم جميعا . . .

اللهم ارزقنى فهماً أعرف به الحق . .
وارزقنى عزماً أتقبل به الحق

هل يسوء قومى أن أستهل حديثى بعبارة لكاتب من الغرب . أرجو ألا يسوءهم هذا ، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها . . والعبارة التى أذكرها الآن لذلك الكاتب الغربى تقول :

القراء فئتان : فئة تقرأ لتذكر ، وفئة تقرأ لتنسى . .

وأخشى أن يكون السادة الذين عارضوا خطاباتى إلى شيخ الأزهر من الفئة الثانية .

فلقد كنت أتلو سطورهم ، ثم أبدىء فى تلاوتها وأعيد ، فأراهم يناقشون شخصاً غيرى ويفندون موضوعاً غير الذى احتوته الخطابات الستة المفتوحة . .

أتراهم نسوا أم تراهم تناسوا ..؟ أم ذكروا ، وأنا الذى نسيت ..؟
سننظر الآن أينا الناسى وأينا الذكور . وعلى أية حال فأنا بلقائهم سعيد . . ومرحباً بهم جميعاً .

ولسوف أقف ومعى غبطة نفسى فى القفص الذى صنعوه لى . . ولسوف أنصت فى سكينة إلى الاتهامات التى نسجوها بعناية والتى لم تصور براعة عقولهم فحسب .. بل وشجاعة ضمائرهم أيضاً ...

ومن حق بعض المعارضين أن أذكر لهم بالخير اعتصام ذممهم بالصدق .

ومن حق بعضهم الآخر أن أهنئه أو أهنئهم بسلاسة الذمة وانسيابها وجرأتها . .

فأنا فى نظر أصحاب الذمم السلسة ، رجل يريد أن يهدم الأزهر ويهدم الإسلام . . « ! ! ! »

رجل يمون أعداء الاسلام بمقالاته المتجنية عن الأزهر لينقضوا على الهدف الذى أضناهم وأضنى آباءهم من قبل . .

نفس الكلمات التى نوطح بها « محمد عبده » إذ كان حياً ... فلما قضى على هذه الأرض أيامه المجيدة الممتلئة وقضى مع الأيام نحبه ، صار الإمام محمد عبده .. وطفق المسلمون عامة ، والأزهريون خاصة يتضمخون بعطر آثاره وأريج ذكراه . .

إنى حريص على أن أصفى حساب هؤلاء السادة مع أنفسهم . . . أجل مع أنفسهم هم .. وأضع بصائرهم على نقيصة تراودهم كثيراً . إن لم يكن دائماً ..نقيصة لا تليق بإنسان ـ تلك هى التى اجترحوها حين فروا

هاربين من موضوعية النقد إلى التماس العيب والرشق بالمروق والزندقة وهدم الإسلام .

ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين . . ؟؟

وألا يعلم هؤلاء أن الرسول عليه السلام قال للشاهد قبل أن يدلى بشهادته : أترى هذه الشمس الطالعة . . على مثلها فاشهد أودع . وألم يسمعوا ـ ولو مرة واحدة ـ قوله : أن أبغضكم إلى نفسى وأبعدكم منى منزلة ، اولئك الذين يلتمسون للأبرياء العيب . .

فما أحراهم إذن ـ ان شاءوا أن يكونوا مسلمين ـ ألا يخرجوا الناس من دين الله أفواجا .

وبودى لو يصغى السادة لهذا السؤال :

أليس هناك ما يسمى « خطأ » . . . ؟

إذن فلماذا لا يعتبرون الزلة فى الرأى ـ على فرض وجودها ـ خطأ . . ولماذا يصرون على تسميتها مروقا وإفكا وكفرا . . . ؟ !

لقد كانت هذه الظاهرة عالية النباح فى كلمات بعض المعارضين ما نشر منها ، وما لم ينشر . .

وإنى لأسدى إلى أصحابها ومرتكبيها فضلا لا أسألهم عليه أجراً حين أفتح عيونهم عليها ، وألفت انتباههم نحوها . وحتى أدعم يقينهم أو يقين القراء إذا رفضوا هم أن يكون لهم يقين . . فسأروى لهم نبأ . .

ذات يوم ذهب بعض أصحاب الرسول إليه تفيض أعينهم من الدموع ، ويشوى عواطفهم شك حرور وقالوا له عليه السلام :

ـ يارسول الله . أنا لنجد فى أنفسنا مالأن نحترق حتى نصير حمما أهون علينا من التلفظ به . . واشاروا إلى أنه الشك فى الله . . ولعلهم توقعوا من الرسول زجرا وتوبيخا . . بيد أن محمدا العظيم ربت على أكتافهم فى حنان رطيب ، وتهلل وجه بابتسامة كضوء الفجر امتصت كل روعهم ومخاوفهم . . وانثال الحديث من بين شفتيه عذبا شهياً كأنه بشرى . .

وفى مثل هدوء المحيط وقوته قال عليه السلام : ـ

ـ « هل جاءكم هذا الشك . . . ؟

« الحمد لله . . أنه صريح الايمان . . . »

ألا فلنعلم أن الرسول الذى احترم حرية الشك ، ورأى الشك ـ قبل أن يراه ديكارت ـ محض الايمان وسبيل اليقين ، لن يضيق عن حرية الرأى . ولن يفسرها بما يفسرها به العاجزون من زيغ ومروق وهدم للاسلام .

ليعلم السيد الفاضل جدا . أن الإسلام لم يمكن له فى الأرض من قبل إلا بسبب من حرية الرأى . ولن يمكن له من بعد إلا بسبب من حرية الرأى كذلك

وليعلم السيد وليعلم أيضاً جميع الذين يفكرون على طريقته أن الخرافة والباطل هما اللذان يحذران حرية الرأى ويرهبانها . لأنهما يظهران حين تغيب . .

أما الحق فلا تزيده حرية الرأى إلا تألقاً ونصوعاً ونفاذاً . . فمن كان حظه من الإسلام الصحيح رابياً كان بحرية الرأى حفياً .

وكما أنه لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، فأيضاً لا يكافح حرية الرأى مسلم وهو مسلم . . لا بد أن يكون إسلامه ساعتئذ فى أجازة . . أو فى حالة إغماء ...

ذلك أن الإسلام الحق لا يسمح بفصم العروة ولا بقطع الرحم الناشئتين بينه وبين حرية الرأى فضلا عن أن يأذن بذلك أو يثيب عليه والحاجة التى ربطت الإسلام بحرية الرأى فى أيام شروقه لا تزال قائمة . بل هى اليوم أكثر إلحاحاً وأكثر نداء . . فالإسلام قد انتهى بفضل أهله والغيورين عليه إلى حالة من الضعف جد مؤسفة . وليس بيده اليوم من أسباب الصحو والبلاغ سوى حرية الرأى يتذرع بها ويتخذها حجة بالغة تقنع الآخرين بحقه فى وضع قدميه على الطريق ..

أجل ، وافهموا هذا جيداً يا من تسمون حرية الرأى مروقا وزيغا . . ويا من ترون فى الرأى الذى لا تهواه أنفسكم استغلالا أثيما لحرية الرأى يجب على المسئولين أن يقاوموه . . وأنتم يا من تنعتون الرأى المخالف لرأيكم بأنه «وصم للدين بما يحجم عنه أعداء الدين أنفسهم ...» .

طهروا ضمائركم من موبقات الغفلة وسوء الظن وطهروا عقولكم من سوء الفهم وسدد التقدير حتى لا يؤثر الإسلام على صداقتكم عداوة عاقلة ... (؟) .

ليس للإسلام اليوم من أمجاد ذويه السياسية والعسكرية والاقتصادية ما يشق له طريق رحلته الهادية . . وباسم حرية الرأى ولا شىء سواها يقول الإسلام للعالم : دعنى أبلغ رسالتى ، وأبث دعوتى وأبذل للناس

سلامى فإذا أنكر الغيورون على الإسلام أن حرية الرأى حق وطيد .

وإذا فسروا كل مظهر من مظاهرها بتفسيرات رديشة . كتلك التى تتفصد من عقول لا تغيب عنها الشمس . (!)

وإذا أصروا على أن حرية الرأى « انحدار فى مهاوى الضلال والمروق من الإسلام . . » وأنها « أقوى نصير لأعداء الإسلام » .

إذا أصر السادة الغيورون على هذا فسيحرمون الإسلام من أمضى أسلحته وخير وسائل بقائه وذيوعه .. وليكونن رزء الإسلام إذن بهم أنكى من رزئه بأبى جهل فى الأولى ، وجنكيزخان فى الثانية .

ترى هل تجدون الحديث قاسياً بعض الشيء .؟ لسوف يؤسفنى أن يكون كذلك فلست راغباً فى القسوة ولا حريصاً عليها . وإنى لسعيد بالرمال السافية التى حملتها كلمات بعض المعارضين والتى أتاحت لى فرصة الحديث عن حتمية التقدير السديد لحرية الرأى ، وإدراك أنها الملاذ الوحيد الذى بقى للإسلام كى يواصل رحلته . أو الملاذ الذى يوشك أن يكون وحيداً .

فلنعزل إذن عن حوارنا هذه المؤتفكات (زيغ - مروق - هدم الإسلام) . . لنعزلها الآن ، وغداً ، وأبداً ، فذلك أجدر أن نظفر بالسلام العقلى . وخليق بأن يطهر حياة الفكر الإسلامى من لوثة العبودية ، ويملؤها بمعانى الكرامة والجلال .

والآن أريد أن أعرف فى أى سطر من سطور خطاباتى الستة حاولت هدم الأزهر أو التشهير به أو أعطيت أعداء الإسلام سلاحاً يصولون به ويجولون .. ؟؟

فى أى سطر . . فى أى كلمة . . فى أى حرف . . فى أية نقطة فوق حرف حدث هذا . .

يقولون : أنت قلت ، أن الأزهر فقد الحياة والنور .. فقد فضائل النفس وفضائل العصر . .

اجل قلت هذا . . وهو تشخيص للعلة أو وصف لها كما أرى فهل تنبيه السقيم إلى علته يعنى الإجهاز عليه أم يعنى بعثه إلى الحياة..؟ على أننى قلت مع هذه العبارة . أننى لا أريد التشهير . ولكننى أريد أن أشد زناد الغيرة على الأزهر والاهتمام به إلى أقصاه حتى ننقذ من حاضره ما يبعث الرجاء فى مستقبله . فلماذا أخذتم الأولى وتركتم الثانية . .

لماذا تقرءون : لا تقربوا الصلاة ، ثم تسكتون ... ؟!

ولقد قلت أيضاً : « كان الأزهر أول من أعطى الأمة دروسها البليغة فى الوطنية وفى الحرية . كان المحرض الأول والحافز الأول إلى كل عمل جليل قامت به هذه الأمة للذود عن حريتها وتوكيد سيادتها » . .
ثم أعقبت هذا متسائلا ـ « لماذا إذن يحفل الآن عن أن يرتاد الأمة طريق الحضارة والمدنية ... » .

أفهذا كلام من يريد أن يهدم الأزهر . . ؟ لقد اتهمنى بعض المستنيرين بالتخريف حين رأونى أدعو الأزهر كى يرتاد للأمة طريق المدنية والحضارة.

فلماذا أنسى بعض المعارضين هذه الكلمات المضاءة أو لماذا تجاهلوها .؟

ويقولون : أنت وصفت كبار العلماء بالنفاق وذكرت أن المناصب الكبيرة فى الأزهر فقدت الكثير من كرامتها . .

أما النفاق فالحديث عنه مرجأ إلى غد ـ إن شاء الله ـ وأما زعمى أن مناصب الأزهر الكبرى فقدت الكثير من كرامتها بسبب التصرفات الرديئة التى ارتكبها بعض من تقلدوا هذه المناصب ، فهذا القول فضلا

عن أنه حق لا يحمل أدنى طعن فى الأزهر .

ألسنا نسمع الوعاظ والأئمة والمرشدين حين يريدون إثارة اهتمامات الناس بدينهم وحفز نزعة التدين فيهم إلى العمل يبكون مجد الإسلام الذى أضاعه المسلمون .

أى فارق بربكم بين من يقول: أن الإسلام فقد مجده المريض وصار هدفاً للضيم بسبب خيبة المسلمين وجهلهم . . ومن يقول : أن الأزهر فقد كثيراً من كرامته بسبب خيبة بعض الذين ولوا أمره وضعفهم ...

وإذا كنت أريد تجريح الأزهر ، فلماذا إذن نشرت أمام الناس صورة لعل أكثرهم لم يكونوا يعرفونها . ، صورة شيخ الأزهر الذى قال لمبعوث الخديو - « أن الله وحده هو افندينا » . . ؟

ولماذا أيضاً ذكرت فى حفاوة وتمجيد نبأ العالم الأزهرى الذى ترك ساقه ممدودة فى وجه الخديو وقال عندما جاءته منه نفحة مال « أن الذى يمد رجله ، لا يمد يده » . .

وبعد فإن لى مع المعقبين حديثا أرادوه عن الكهانة ، والنفاق والطلاق والمناهج وعن لوثر أيضاً . .

وفى غد أن شاء الله نلتقى حول هذا الحديث بيد أنى حريص على توجيه النصح مرة أخرى إلى الذين يرجفون على حرية الفكر والرأى بتهم « الزيغ والمروق وهدم الإسلام » أن يراجعوا أنفسهم وينزهوها عن هذا العجز المشوب بالبهت وبالصغار .

لقد علمنا « فولتير » أن الذى يقول لك اليوم ، اعتقد ما اعتقده وإلا لعنك الله . . سيقول لك غداً اعتقد ما اعتقده وإلا قتلتك .

وأن الإسلام ليحب من ذويه ألا يختاروا لأنفسهم هذا الشعار .

— نشرت فى جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٤ —

المسايرة .. أو الانقراض !

> لست أدرى ماذا يقول غيرى . .
> اما أنا فسأظل أؤكد لكم أنه : أما أن تسيروا . . وأما أن تنقرضوا . .
> « فولتير »

لم أكن مهتما وأنا أكتب عن الأزهر بتعقب مساوئه جميعا . . ولم أزعم وأنا أقدم بعض المقترحات لاصلاحه أنها الطريق التى لا طريق للاصلاح سواها . .

فأما المساوىء فقد عنيت فيها بما أحسبه منبعا وأساسا . وأما مقترحاتى للاصلاح فقد قلت وأنا أقدمها فى آخر خطاب مفتوح : « انى لا أراها أكثر من مثال يمكن أن يحتذى ، وبنان تشير إلى الطريق » .

أقول هذا للمؤيدين الذين لامونى على الاقتصاد فى عرض المساوىء الكثيرة التى ينوء بها الأزهر . وأقوله للمعارضين الذين نعت بعضهم مقترحاتى بالغرور وظنوا أنى أفرض على الآخرين طريقتى فى البحث وطريقتى فى التفكير .

وإذ كان هناك فيض من الرسائل المؤيدة والمعارضة لم يتسع النطاق لنشره ، فأود وقد اطلعت على هذه الآراء أن أضيف المعارض منها إلى ما تم نشره فعلا ثم أناقش وجهات النظر التى التقى حولها السادة

المعارضون والمعقبون . فأن الزمان والمكان لن يتسعا لتفنيد الرسائل واحدة فواحدة . . وأولى المسائل التى آثارها فريق من المعارضين هى : الكهانة . .

لم أذكر فى خطاباتى الستة شيئا عن الكهانة ولا عن السلطة الدينية ، ومع هذا فقد طاب لبعض الناقدين أن يتفضلوا ـ على الطريقة الأزهرية ـ وينشئوا لكلامى شرحا وحاشية . . وفى الشرح والحاشية اتهم صاحب المتن الذى هو أنا ـ بأنه يفهم خطأ أن سبيل نهضتنا ، تخليص السلطة الزمنية من السلطة الدينية . وليس فى الإسلام رجال دين ورجال دنيا . كما هو الحال فى المسيحية . . ونحن نتقبل هذا الاستطراد الذى أراده أهله ونقول لحضراتهم : ليست المسألة أن يكون فى الإسلام كهانة أو لا يكون . فالإسلام قطعا يمقت الكهانة ويطاردها . .

ولكن المسألة هى : هل تخلو حياة المسلمين من الكهانة ، وهل نجا المجتمع الإسلامى المعاصر من تأثير الكهان ؟

وإذا كنا نستعمل فى كلمتنا هذه لفظ الكهانة استعمالا تجوزيا واسعا ونريد بها كل محاولة خاطئة تتوسل بالدين لوقف موكب التقدم الإنسانى وجزر مده الزاحف ، فلشد ماسيؤسفنا أن نرى المجتمع المسيحى قد برىء من الكهانة وابتلى بها المجتمع الإسلامى ، تفرخ فى دروبه وتبيض !

أجل . . أيها الأصدقاء . . ليس فى الإسلام كهانة ، ولا سلطات دينية كما تقولون . ولكن الحياة الإسلامية تنوء واقعيتها بسدنة الكهانة ومنتحلى السلطان الدينى .

وإذا لم يكن ذلك حقا فبم نسمى محاولات بعض رجال الدين هنا . . وهناك . .

بم نسمي الفتاوى التي كانت تحارب آمال الشعب وتهدم حقوقه ؟
ولماذا كما ذكرت قبلا لم يصدر مثل تلك الفتاوى عن حاخام اليهود.
ولا عن بطريرك الأقباط ؟

وبم نسمي طلب الأزهر الذي ذكرت الصحف أخيرا أنه أجيب إليه ـ ذلك الطلب الخاص بتمثيله في مراقبة الأفلام السينمائية ليرفض منها مالا يكون وفق الآداب الدينية ؟

إني لأجد حتى اليوم الأسى الذي وجدته منذ أعوام وأنا أشاهد فيلم « ظهور الإسلام » أبان ظهوره . فلقد أراد المخرج أن يرينا الرسول عليه السلام وهو يدخل المدينة ، فأرانا سوق الناقة وأخفافها !

أجل . . كان شبح الأزهر الشريف . . ورجال الدين الذين يظلمون الدين . . كان شبح الكهانة المخربة يطارد المخرج المسكين . . وهكذا في اللحظة التي تطلع النظارة إلى الشاشة ليبصروا ولو طيفا ضوئيا يمثل الرسول داخلا المدينة . . إذا هم يفاجأون بأخفاف الناقة وأظلافها !

وهكذا نابت الأخفاف والأظلاف في ذلك المشهد عن صورة الرسول !!
أية سفاهة . . أية فظاعة . . وأية كهانة جهلاء !

وليس في مصر وحدها تمد الكهانة عنقها وتدس أنفها .

ففي الباكستان يطالب رجال الدين ألا تصير قرارات البرلمان ومراسيم الدولة نافذة ألا بعد أن تجيزها لجنة منهم . . من رجال الدين !!

ولقد أوغلت هذه الكهانة في المجتمع الباكستاني إيغالا ماحقا يهدد سلامتها بأخطار فاتكة ، ورجعية مدمرة . .

وفي أندونيسيا ، لم يكد « سوكارنو » يقذف بهولاندة المستعمرة،

خارج حدود بلاده حتى فوجىء ودماء بلاده لا تزال تسيل .. بحرب دينية شنها عليه قوم أضلهم الجهل والغرض وأرادوا أن ينظموا المجتمع وفق ما تهواه عقولهم المريضة وقلوبهم الأكثر مرضا .

وهكذا تعيث الكهانة مسلحة وغير مسلحة فى جميع بلاد المسلمين ثم نتثاءب فى سذاجة مسترخية ونقول عن الذين يناهضون الكهانة أنهم يضربون فى غير عدو ، وأنهم مثل « دون كيشوت » يصارعون الرياح !

المناهج .. والتجديد

وثانية المسائل التى يثيرها الناقدون الناقمون هى : مناهج الأزهر .

لقد دعوت إلى وصل هذه المناهج بالحياة ولم تحمل دعوتى فى سطر من سطورها عزل الأزهر عن طريقته الخاصة فى البحث والدرس .. تلك الطريقة « الأكاديمية » التى تغوص فى الأعماق وتحلق فى الآفاق .. ولكن وصل الثقافة الأزهرية بالحياة كان يعنى كما ذكرت فى خطاباتى اختيار الكتب اللائقة وتوزيع المناهج توزيعا متكافئا مع إمكانيات الطلاب فى جميع مراحل الدراسة .

لقد كنت وكثيرون مثلى نعجز عن فهم كاف لكتاب « القطر » وكان مقررا علينا فى السنة الثالثة الابتدائية فضينا نحفظه من غير فهم حفظا يكفل لنا النجاح فى الامتحان غير عابئين بحظنا الثقافى ولا بمحصولنا العلمى . وأن كثيرا من طلاب الأزهر اليوم ليفعلون ..

وأما الكتاب اللائق ، فالأزهريون أنفسهم وجميعهم لا يفتأون يرددون الشكاة من الأسفار التى كتب عليهم أن يحملوها ! والتى تموج بسيل من المسائل النظرية والفرضيات الوهمية .

ومن رأى الناقدين ، الاعتزاز بهذه الفرضيات مهما تبلغ من الكثرة والتدفق . ولقد ذكرت فى الخطابات المفتوحة أنه لا تثريب على الفرضيات فى حدودها المعقولة الهادفة . . وضربت لذلك مثلا ، الفرضيات التى توسل بها « انشتاين » إلى نظرية النسبية .

لكن فرضيات بعض الكتب الأزهرية ليست كذلك ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لن يقف رجل فى محراب الصلاة وعلى كاهله قربة فساء !

وكما قلت فى خطاباتى ليست « قربة الفساء » وحدها هى التى ترهق ضمير الأزهر وتفكيره . ولكنها آلاف المسائل المماثلة والكفيلة بأهدار وقت يمكن أن ينفق فى شىء أنفع منها .

أن هذه المسائل النظرية المتراكمة لم توضع لتسد حاجات محتملة الحدوث . ولو كان هذا باعثها ما جاوزت حدود العقل والإمكان . لكنها ثمرة عوامل أخرى يعتبر الاهتمام بسد حاجات الناس أضألها شأنا وأدناها حظاً .

فهى - أولا - ثمرة المنافسة الطويلة التى قامت بين فقهاء المذاهب المختلفة . تلك المنافسة التى كانت تمثل « معركة ذكاء » أراد كل فريق فيها أن يكشف عن مهارته وسعة حيلته مما حول المسائل الفقهية إلى أحاجى وألغاز ، ولعل مما يفسر هذا العامل قصة الرجل الذى حلف بالطلاق ليأكلن « فجلا » من الجنة . . وأخذ يتنقل بين الفقهاء يستفتيهم فى أمره من شافعى إلى مالكى إلى حنبلى . . فلما انتهى مطافه إلى فقيه حنفى ، والأحناف مشهورون بطول الباع فى التفنن حتى لقد سمى مذهبهم

كما تعلمنا فى الأزهر ـ مذهب أهل الرأى ـ قال الفقيه الحنفى للرجل : الأمر هين ويسير . . خذ أمك إلى حقل لجل . . فإذا وقفت هناك فانزع من بين قدميها لجلا وأطعمه فإنه من الجنة ، لأن الرسول يقول : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

وفعل الرجل ولم يقع الطلاق . ومن ذلك اليوم اعتنق مذهب الأحناف وربح الفقيه الحنفى لمذهبه وافداً جديدا . .

وهى ـ ثانيا ـ أعنى الفرضيات الفقهية . . جاء الكثير منها كرد فعل المعتقدات الخرافية التى كانت الجماهير تعتنقها . فمثلا لما كانت جماهير المسلمين فى العصور السحيقة تؤمن بالسحر ، وبقدرة الساحر على تحويل الإنسان إلى حيوان . وجدنا مسألة فقهية تقول : من عقد على امرأة وهو إنسان . ثم تحول إلى قرد أو خنزير فهل يظل عقد الزواج قائما أم ينفسخ بهذا التحول الطارىء . . ؟

أن يتحول القرد إلى إنسان . ذاك شىء جائز . . اما أن يتحول الإنسان إلى قرد فهذا ما لم يصنعه الله من قبل .

ما قيمة هذه الوهميات إذن ؟ . . وأى ملكات ستربى ، وأى مواهب ستشحذ . . ؟ لقد أضاء أصحاب محمد الدنيا وعمر خلفاؤه الأرض اليباب ، وما كان معهم من هذه الكتب شيئا ، فلما غرق المسلمون فى سيل العرم هذا . ، صاروا لاحول لهم ، ولا طول . .

نعم . . فى الأيام التى ارتفعت فيها شمس الإسلام لتملأ الأفق ، كان عمر يزجر الناس قائلا : « أياكم والسؤال عن شىء لم يكن . . فإن لنا فيما هو كائن شغلا » . .

له الله ذلك الفاروق عمر . . هل كان جاهلا أم كان للاستعمار نصيرا . . ؟

أجل . . إن المعارضين يخيروننى بين السوأتين لأنى أنادى بخلاص عشرين ألفا من أبناء الأمة . من دراسات لو رآهم أمير المؤمنين وهم عاكفون عليها لدمدم بغيظه على المكان وعلى السكان . .

انه لا شيء يخدم الاستعمار مثل الخرافة . . ومثل أن يغرق عقل الأمة فى طوفان من الأوهام .

ومرة أخرى أقول لكم : عندما كان المسلم يخوض فى وحل المدينة حافياً ثم يدخل المسجد فيصلى وراء رسول الله دون أن يسأل أطاهر هذا الوحل أم نجس . .

وعندما كان يدخل الصلاة بثياب المعركة المبتلة بالدم دون أن يتيه فى دروب الخلافات الفقهية . . ودون أن يسأل الفقيه : أيغسل الثوب أم يقطع مكان الدم فيه . . أيخلعه أم يبقيه . . وإذا خلعه أيتركه بجواره ويصلى عريانا . . أم يحرقه ويتخلص منه قبل الصلاة حتى يكون فاقدا الثوب فتصح صلاته بلا ثوب . . ؟

عندما لم يضل المسلمون فى هذه المتاهات ظفروا كثيراً . .

وبالله . . كم تكون المفارقة مضحكة ومفزعة كذلك ، حين يقف المؤذن على منارة الأزهر ينادى لصلاة الظهر . بينما علماء الأزهر وطلابه حجرات الدراسة يتدارسون حكم صلاة العريان . .

فقبل الظهر بنصف ساعة تبدأ الحصة الرابعة فى معهد القاهرة مثلا ، وبعد الظهر بنصف ساعة تنتهى . . وهكذا شغل الأزهر بالفرضيات

الوهمية عن تنظيم مواعيد دراسية بحيث تتسع لأداء فريضة الظهر التى تدركها وهم يدرسون . .

أن فضيلة الشيخ الطيب حسن النجار عضو جماعة كبار العلماء لم يستطع أن ينكر فى رسالته التى نشرناها «أن التأليف العلمى فى الأزهر قليل بالقياس إلى غيره من الجامعات المدنية » وقال عن « الكتب الأزهرية التى رميت بالتعقيد أن فى بقاء البعض منها مصلحة كبرى » ومفهوم هذا أن بعضها الآخر لامصلحة فيه .

واعترف أيضا بأن « العلوم الأزهرية الأخرى كالأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ قليلة بالقياس إلى الجامعات الأخرى . . . » وعلل ذلك النقص بعدم تشجيع الإدارة الأزهرية للانتاج والتأليف . . ثم قال فضيلته وهو يتحدث عن الوثبة الكبرى التى يتهيأ لها الأزهر . « ليس ذلك بعزيز متى توفر الاخلاص من أبنائه ، واتجهوا بعين العناية إلى معهدهم الجليل » .

أليس هذا القول شبيهاً بما أقوله ، وبما أدندن حوله . . ؟

بقيت كلمة عن التنوع الذى طالبت به لثقافة الأزهرة . فقد طارت قلوب بعض الناقدين شعاعا ظانين أننى أدعو لتحويل الأزهر إلى « معهد موسيقى » أو « كلية طب » أو « مدرسة تجارة » . . ولقد دفعهم هذا الهلع إلى تناقض واضح . ففضيلة الشيخ عبد الرحيم فودة مثلا يتعوذ بالله من أن يتحول الأزهر إلى معهد للتحليلات الطبية (! !) ثم يعود فيقول فى استحياء « شىء واحد أحب أن يدخل الأزهر وهو الاقتصاد

السياسى وما يتصل به ، أو يدخل فى صميم تكوينه من نظريات التجاريين والطبيعيين وآراء كارل ماركس وآدم سميث وملتس » . .

لماذا إذن لا يخشى الشيخ فودة من أن يتحول الأزهر إلى « كلية تجارة » بدراسة فن من فنون الحياة كالاقتصاد السياسى . . ؟

ولماذا سمح لنفسه ـ وذلك شأنه ـ أن يقول « لست أنساق إلى مسايرة هؤلاء النافخين فى الأبواق ، فأزعم أن رسالة الأزهر يجب أن تتسع وتتسع حتى تستوعب إنشاء معاهد للموسيقى والتمثيل . . »

عجبا للشيخ فوده . . يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض . .

إنى حين دعوت إلى إدخال فنون الحياة فى الأزهر لم أرد أن أسلخ الأزهر من اختصاصاته كما فهم المعارضون وكما فهم الشيخ فودة ، والأستاذ مصطفى سلامة نقيب المحامين الشرعيين بالثغر .

فالرجل المثقف اليوم هو الذى يعرف بعض الشىء عن كل شىء ... ثم عن شىء واحد كل شىء . . وبهذا يجمع بين الثقافة والتخصص دون أن يبطل أحدهما الآخر أو يطغى عليه . .

أما أن يتخصص رجل فى فن واحد من المعارف ويضرب الذكر صفحاً عن بقية الثقافات والعلوم . فإنه بالغا ما بلغ من الاستظهار والتفوق لن يكون أسعد حالا من صاحبنا الذى قال : « قرطبة على وزن فعللة وهى صحابيه جليلة تزوجت صحابيا جليلا ، كما حدثنا الأستاذ موسى جلال أحمد . .

ومعى سؤال ألقيه على الذين اقشعرت أبدانهم عندما ضربت الموسيقى مع غيرها من فنون الحياة مثلا لما ينبغى للأزهر أن يلم به وينعم.

ـ ما هى شهرة برناردشو . . ؟ كاتب ومفكر فيلسوف . . ؟ أم عازف بيانو . وقائد اركسترا . . ؟

ستقولون أنه مفكر وفيلسوف . . إذن فاعلموا هذا المفكر الفيلسوف سئل عن أفضل الوسائل التى صيرته كذلك . فأجاب : إنها موسيقى موزار . .

أكاد أسمع الشيخ جابر حمزة يقول على طريقته : وكيف نتأكد من أن « شو » قال هذا الكلام . . فالموسيقى إذن ضرورية لتكوين الإنسان المثقف العظيم . . ولكم كان سرورى عظيما حين قرأت فى الصحف أن الكليات الثلاث للأزهر . قد تألف فى كل منها جماعة الموسيقى والتمثيل . . أن روح التقدم الكامن فى طبيعة البشرية قد تحرك فى شباب الأزهر المتوائب الجيد . وليست المسألة أن بعض الشباب سيعزف الألحان . ولكن المسألة فى صورتها الصحيحة هى أن شباب الأزهر يمضى بعهده مستلهما قلبه ورشده واحتياجاته ولن يظل طريح الأرض أرضاء للمتخلفين . . سيأخذ الحياة . . ولن ينتظر حتى يعطاها . لأن نذيرها لا يفتأ يناديه : أما المسايرة ، وأما الانقراض .

ـ نشرت فى جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٤ ـ

بذات لكم نصحى . .

الدين النصيحة . .
« رسول الله »

لا ينكر عظمة الفقه الإسلامى وخصوبته وقابليته سوى إنسان فقد السيطرة على تفكيره .

ولكن الذى يترك النباتات الطفيلية تشيع فى المراعى الخضراء يأتى منكرا وإثما . .

وهذا بالضبط هو موقفنا من الكتب التى تمتبر أوعية الفقه الإسلامى . سواء منها ما يدرس فى الأزهر وما يقرأ خارجه . .

ان أعشابا ضارة ، وطفيليات كثيرة قد زحفت إلى التراث النضر البرىء . . ولن ينكر ذلك عاقل ، وأذن فمهمة الإصلاح الدينى والعلمى لا تستطيع أن تغمض عينها عن هذه الأعشاب وتلك الطفيليات . .

ولقد ذكرنا فى كلمة الأمس أن تجديد مناهج الأزهر لا يعنى نزع الأزهر من دائرة اختصاصه وقلنا أن مثقف العصر الحديث يجب أن يعرف بعض الشىء عن كل شىء . ورأينا كيف أن فنا من فنون الحياة كالموسيقى عندما تدخل الأزهر لن تحوله إلى معهد فنى . وإنما ستتيح لأبنائه نداوة فى العاطفة وسموا فى الروح وأشراقا فى العقل . كما أخبر برنارد شو حين عزا تألق مواهبه العقلية إلى موسيقى موزار . .

وبهذه المناسبة ، يقول فضيلة الشيخ سيد الطوبجى من علماء أسيوط أن الحديث الذى ذكرته كنموذج لما فى كتب الأزهر من تحريم الموسيقى قد نبه بعض العلماء على عدم صحته .

وأقول لفضيلته : أن هذا - لو صح - يجعل مسئولية الأزهر أكثر وأعظم . فمعظم كتب الفقه التى يدرسها طلاب من جميع المذاهب تبشر بهذا التحريم وتتشيع له . وإنها لتسوق حشداً من الآراء الفقهية لتؤثر بها على القارئ .

ففلان يقول عن الغناء « إنما يفعله عندنا الفساق » ! وآخر « صرح بتحريم الملاهى كلها كالمزمار والدف » وثالث يقول عن الموسيقى والغناء « معصية توجب الفسق وترد بها الشهادة . ! »

هذا فضلا عن الأحاديث الكثيرة التى تعزوها تلك الكتب فى إصرار إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام .

لقد كان سفيان الثورى يقول : « الفقه عندنا الرخصة من ثقة . . أما التشديد ، فكل واحد يحسنه » .

فلماذا لا يقدم الأزهر للأمة فقهاً جديداً لا إفراط فيه ولا تفريط ؟ ولماذا لا ييسر لأبنائه طرق الانتفاع بالتراث القديم ؟ .

إن مناهج التعليم الأزهرى لا يقوم عوجها بأن يجىء كتاب بديل كتاب . . ولا بتذليل الكتب بالتهميشات . . فالأزهر بمثل هذا الرفو والترقيع لن ينهض من عثرته وسيظل كما قال الشاعر :

إذا بل من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذى هو قاتله

والداء الذى هو قاتله تلخصه كلمة واحدة .. الجمود .. جمود البيئة .. وجمود المنهج .

صحيح أن بالأزهر محاولات طيبة بدأت من عهد غير قريب . ولكن نقص القادرين على الكمال شر العيوب . . والأناة عند حلول الفرصة خسران وضياع .

الطـــلاق . . والأزهر

أشرت فى خطاباتى إلى مسئولية الأزهر عن فوضى الطلاق فى بلادنا . وسقت إحصاء رسمياً تبين فيه أن حوادث الطلاق بين رجال الدين والوعاظ والفقهاء وخدمة المساجد والمأذونين كانت بنسبة ٤٥ ٪ بينما هى فى طائفة أخرى كالأدباء والخبراء والإحصائيين بنسبة ٢٥ ٪ .

وقلت ليس سبب هذا التفاوت قطعاً أن الأولين أسوأ خلقاً من الآخرين . . وإنما سببه أنهم أكثر انصياعاً للآراء الفقهية الخاصة بالطلاق وأكثر تأثرا .

ولما كان الأزهر هو النبع الذى يتلقى الناس منه فقه دينهم فإنه مسئوليته تصير أمراً غير مستراب فيه .

وهذه المسئولية تنتظم أمرين :

أولهما : الطريقة المنهجية التى يدرس الأزهريون بها أبواب الفقه ومنها الطلاق .

ثانيهما : عجز الأزهر حتى اليوم عن تحديد جغرافية الطلاق وحقيقته.

التى ذابت فى اللغو الكثير ، والهذر الباطل . . وهنا يسألنى الأستاذ يسن حسن إبراهيم ويسأل معه كثيرون :

ـ هل أريد من الأزهر أن يفتى بغير ما فى كتاب الله وسنة رسوله ؟

وأجيب : لا ياسيد يس . . بل أريد منه أن يلتزم الكتاب والسنة . . فماذا فى الكتاب والسنة عن الطلاق ؟

لقد دعوت فى خطاباتى إلى حصر الطلاق الواقع فيما كان عن وطر . . استجابة لقول الرسول عليه السلام « إنما الطلاق عن وطر » .

وليس يكفى ـ فى نظرى ـ أن يصير ذلك قانونا للمحاكم الشرعية . بل يجب مع هذا وقبل هذا أن يغير الأزهر ما بمناهجه التعليمية عن الطلاق حتى تسير وفق هذه القاعدة. وحتى تتم عملية ترشيد لوعى علمائه وطلابه وبالتالى لوعى الذين يتأثرون بهم من العامة والجماهير .

ان الله لم يشرع الطلاق ليكون يمينا يقسم بها ، ولا ليكون سوط تهديد وعذاب . . وأذن فبكلمة واحدة يجب أن تهدر آلاف الفروض الفقهية التى تشغل أذهاننا بمن قال لزوجته أن لم تفعلى فأنت طالق . . وعلى الطلاق لأفعلن كذا . . كل ذلك لغو واستخفاف بدين الله . . وإذا بلغ الأمر أن يصير اللغو فى الدين والاستخفاف به منهاجا يدرسه علماء المسلمين فلكم يكون الجهل حينئذ فضيلة محبوبة !

أن فضيلة الشيخ عبد الجواد بكرى يضم صوته للفريق ، ويجادلنا بقوله تعالى « الطلاق مرتان فأمساك بمعروف أو تسريح بأحسان » .

ولست أدرى أية علاقة بين هذا وما أقول :

ودعونى أسأل سؤالا :

ـ هل حدث أن استعمل الطلاق على عهد رسول الله عليه السلام للحلف أو للتهديد ؟

أما أنا فأقول : لا . .

وإذن فالرسول يقول فى حديث متفق على صحته : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » فاتخاذ الطلاق يمينا رد وباطل .

والرسول أيضا يقول : « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » وهنا يقول ابن حزم فى المحلى ـ الحديث دلالة على أن الحلف بالطلاق لا يقع . لأنه حلف بغير الله . والحلف بغير الله معصية لا يمين . .

ولكم كان القرآن رقيقا ودقيقا وهو يشرع للطلاق فيقول : « إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » أنه يرى الطلاق مظهرا الرغبة أكيدة فى الانفصال ، فيدعو لايقاعه على أبر الصور وأكثرها صيانة لحقوق المطلقة

ولقد أخبر الرسول عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام عليه السلام غضبان آسفا وقال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » ؟

فالكتاب والسنة يرفضان أن نزجى فراغنا فى اصطناع حشود مضحكة من الفرضيات الوهمية فى مسائل الطلاق .

ثم تتحول هذه الأحاجى على مر الزمان إلى مسائل فقهية تناط بها أخطر مشاكلنا الاجتماعية ، وهى مشكلة الأسرة والطلاق . .

وإذا أراد السيد يس ومن معه مزيدا فى هذا ، فإنى أسوق إليهم نبأ صادقا وحديثا صحيحا :

ـ وقف رسول الله يوما يخطب أصحابه ويقول : « أن الله كتب

عليكم الحج فحجوا . . فقال قائل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فمضى الرسول يقول : أن الله كتب عليكم الحج فحجوا . . وعاد السائل يسأل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ . . وأعاد الرسول حديثه للمرة الثالثة . . وعاد الرجل يسأل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فغضب الرسول حتى تمعر وجهه من الغضب وقال : « لو قلت نعم لوجبت ، ولما أطقتموها . . ألا أن أعظم المسلمين فى المسلمين وزرا من سأل عن أشياء لم تكن محرمة عليهم فحرمت بسبب مسألته .

هكذا كانت سنة الإسلام . . القصد فى الأسئلة والافتراضات المتعلقة بالتشريع . . فإذا طالبت بإنقاذ المجتمع والأزهر من فرضيات الطلاق الوهمية التى تضلل تفكيرنا ، وتهدم بيوتنا ، فأنا بهذا أرفع صوت الكتاب وأعلى حجة السنة .

ويسألنى كثيرون : كيف أدعو لحصر الطلاق فيما كان عن وطر ، مع أن الرسول يقول : « ثلاث جدهن جد ، وهزلهن جد : النكاح ، والطلاق ، والرجعة » .

وأجيبهم بأن فى إسناد هذا الحديث «عبد الرحمن بن حبيب ابن أردك » وهو مختلف فيه ، وكذلك حديث الطبرانى عن فضالة الذى يجادلنى به فضيلة الشيخ إبراهيم العامرى هو وحديث أبى ذر . . أقول لفضيلته : إن فى حديث فضالة ـ ابن لهيعة ـ وهو لا يحتج به . . وأما حديث أبى ذر ، ففى إسناده انقطاع .

ولفضيلة الأستاذ عثمان القاضى اعتراض طريف ، فهو يقول : « إن حصر الطلاق فيما يكون عن وطر يعنى عدم وقوع الطلاق المعلق .

وأنت تعلم أن الزواج يملك إيقاع الطلاق منجزاً وعليه فهو يملكه معلقاً كذلك » . .

والجواب يا سيد عثمان أن قياسك هذا غير صحيح . ولكى تقتنع فى يسر أضرب لك مثلا بالنكاح ، فالرجل يملك عقد النكاح منجزاً .. ولكنه لا يصح معلقاً ، وكذلك الرجعة يصح فيها التنجيز ولا يصح فيها التعليق .

أعود فأقول : إن مناهج الأزهر يجب أن تتنزه عن فرضيات الطلاق المسرفة ، وعن الفرضيات الكثيرة فى جميع أبواب الفقه . .

ما أحوج هذه المناهج «اللولبية» إلى رجل كأبى الوفاء بن عقيل . . لقد استفتاه رجل قائلا : إنى أنغمس فى الماء مراراً كثيراً ، وأشك فى غسلى ، هل صح أم لا ؟ .. فأجابه أبو الوفاء : اذهب ، فقد سقطت عنك الصلاة . . قال الرجل وقد أخذته الدهشة : كيف ؟ . . قال أبو الوفاء : لأن الرسول يقول : «رفع القلم عن المجنون» . . ومن ينغمس فى الماء مراراً ثم يشك هل أصابه الماء أم لا ، فهو مجنون .. ! !

النفاق . . ولوثر

ورأى بعض الناقدين أنى ذممت الأزهر . ، ورميت علماءه بالنفاق . والحق أنى لم أشأ قط أن أفعل ذلك لسبب بسيط ، هو إيمانى بأن النفاق مرض اجتماعى شامل .. تكاد ظروفنا الاجتماعية والإقتصادية والتربوية تجعله ضريبة من ضرائب الوجود والمعيشة فى هذه البلاد ، وإذن فليس

ثمة ما يدعو لإلقاء هذا الوزر على الأزهريين - وأنا منهم - دون سواهم . .

بيد أنى أشرت فى وضوح إلى مواقف بعض كبار العلماء الذين أساءوا إلى الأزهر وإلى الإسلام . . وركبوا من النفاق ما لم تكن تدعو إليه ضرورة ولا حاجة ، وتفننوا فى إزجاء شعائر الزلفى تفنناً مشهوداً .

وأما لوثر ، فيرى السيد جلال زكى أن دعوة شيخ الأزهر للتشبه به نوع من المخاطرة . . لأن لوثر - كما يقول - انحرف بالإصلاح عن الطريق السوى . وبصرف النظر - الآن - عن مدى ما فى هذا الزعم من الصواب ، أقول للسيد جلال : إننى حين أقول لك : كن أسداً . . فليس معناه أننى أدعوك لتصنع لنفسك ذيلا كذيل الأسد ولا ضراوة كضراوته ، ولكن أريد وجهاً من وجوه الشبه وهو الشجاعة .

وكذلك لوثر . . فإن شجاعته الأدبية التى واجه بها الخرافة . . تكاد تكون معدومة النظير ، وحسبنا من شيخ الأزهر أن يظفر لنفسه بمعشارها . . ولقد رددت على نفسك بنفسك حين قلت : « صحيح أنقذ لوثر الكاثوليكية من ضلالات البابوية وانحراف البابوات . . »

وبعد . .

فإنى أحمد الفرصة التى مكنتنى من أن أرد للأزهر بعض الجميل .

وإنى لأشكر جميع الذين أمدونى بآرائهم معارضين ومؤيدين .

ولسوف تظل قلوبنا معلقة بمستقبل هذا المعهد الذى أوقد لهذه الأمة شموع المعرفة فى عصر الظلمات .

ولقد بذلنا للمسئولين نصحا نحسبه واجبا . وقلنا كلمات نحسبها مجدية . .

قلناها ، والحاجة إليها أعظم ما تكون .

قريباً إن شاء الله

تصدر المجموعة الثانية

للمؤلف ..

التوزيع فى البلاد العربية

شركة فرج الله للصحافة



الثمن

مطبعة مخيمر

٢٩ شارع الجيش ت ٤٧١٩٣